التقفيصة

محمود سلطان

الكتاب: التقفيصة

المؤلف: محمود سلطان

رقم الإيداع: ٢٧٩٠١ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: 978-977-493-809-2
الطبعة: الأولى / ٢٠٢٤

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

التقفيصة

رواية

محمود سلطان

إهـداء

إلى كلِّ مفقودٍ
غيبته الحربُ عن الوجود
ودُفنَ هناك... بعيدًا غريبًا...
بلا مشيعيين
لا قبر ولا شاهد
وتدفقَ دمُهُ «البريءُ» ـ ولا يزال ـ نقدًا
في جيوبِ وكروشِ أثرياء الحرب... وأدعياء البطولة

محمود سلطان

(١)

لا يتذكر متى وعي وجه أمه، وأيًّا منهن كانت أمه: ثلاث شقيقات، يتناوبن على العناية به، تُلقي به لإحداهن، وتأمرها بفظاظة، أن تتولى إسكاته إذا بكى، وإطعامه إذا جاع، وتنظيفه إذا تغوط أو بال.

الأم مهووسة بالثرثرة مع الجيران، وتركت للبنات مسؤولية إدارة شؤون البيت، من طبخ وغسل.

ليلة الخبيز توزع بينهن المهام: نخل الدقيق، بمناخل السلك والحرير، ولّت العجين في الماجور، أو في طشت. وتقف هي على رؤوسهن تستهل العجن، بالبسملة والصلاة على النبي والدعاء بالعافية، لمن يُرزق طعامًا منه... وتركه ريثما يخمُر حتى قبيل الفجر بقليل.

مع شقشقة الصبح، تجلس أمهرهن أمام الفرن، في حين تقوم الأم بـ«تقريص» العجين على الطبالي بعد رش الردة عليها، وتتبادل البنتان «تبطيط» ورحرحة الخبز، بوضعه على مطارح لتوسعته.

إذا تذمرت إحداهن، ليلة الخبيز، متذرعة ـ صدقًا أو كذبًا ـ بأداء امتحان في فصلها صباحًا، كانت تقسو عليها وتُقسِم بهدوء: لا مدارس ولا تعليم بعد اليوم، حال خرجت عن طوعها وتحدت إرادتها... ولم يُعهد عنها إلا البر بقسمها، مهما ترتب عليه، من أضرار ماسَّة بمستقبل البنات.

علِم ـ عندما كبر ـ أن أكبرهن، كانت كلما ملّت حمله وشاءت أن تتخلص منه، تتعمد «قرصه» على فخذه، ليصرخ ويلفت لوعة أمه عليه، فتلتقطه من بين يديها، فيخلو لها بعض الوقت لتلعب وتلهو مثل بقية صبايا الحارة.

لا يذكر أنه بات ليلةً في حضن أمه، كان مثل القارب الشارد، يلقيه الموج على شواطئ ومرافئ غريبة عنه، حنانها بارد لا دفء فيه، يُترك وحيدًا وقت الظهيرة في غرفة على أطراف حوش الدار، يستلقي على ظهره، يهجر النوم عينيه، حين هُيئ إليه رجال ونساء وأطفال وشيوخ، مثل الأقزام، يتحركون ذهابا وإيابا على عروق الخشب، التي تسند السقف المشدود بالطين والقش، يدير لهم ظهره، ينام مقرفصًا، وتصطك أسنانه من الخوف، يسمع رجرجة السرير من ارتعاش جسده. يظل على حاله صامتًا يخشى الصراخ أو طلب النجدة، إلى أن تدفع إحدى شقيقاته الباب، فيثب إليها متعلقًا بعُنقها... وهي من المرات القليلة، التي يشعر فيها بيدٍ حانية، تربت عليه وتطبطب على ظهره الغض.

ذات يوم ـ وهو في الرابعة من عمره ـ غابت أمه كعادتها، عند إحدى الجيران، فأمرته شقيقته «نعمات»، أن يغسل المواعين بدلاً منها، فلما بكى متذمرًا؛ عاقبته بخلع ملابسه والجري عريانًا وسط الحارة.

لم يعرف أن له أُمًا! ولا يراها إلا عندما تقرر معاقبته على شيء أتلفه أثناء لعبه بالبيت.

اعتاد على رؤية شقيقاته وحسب، هن لا يُشبعن حاجته

إلى شيء يجهله، ولكنه يسمع صرير جوع قلبه إلى هذا الشيء المجهول، إنه يشبه ريشة تذعن لحملها ريح مرغمة.

الطفل بقلبه المتوضئ بندى الفطرة، لا يدلفُ إلى ردهته المغسولة بماء البراءة، إلا الحب المصفّى، يتعرف على الحنان، حتى وإن كان في حجم إبرة، تختبئ بين أكوام القش المنتفخة.

أبوه في عمله ليلاً، ويقضي معظم نهاره نائمًا، ينهض للصلوات، ثم يستأنف نومه، وقبيل المغرب يغادر لورديته الليلية. أحيانًا يسأل عن ممدوح، يحمله من تحت إبطيه، يدفعه إلى أعلى، يطلقه في الهواء قريبًا من يديه، ليلتقطه مرة أخرى ويدفعه من جديد، يحتضنه كأنهما عاشقان يتراقصان، ينصت البيت كله لقهقهة الأب الحنون، وضحكات طفله المرحة.

في أيام راحته الأسبوعية، يهجر ممدوح مكانه ليلاً من بين شقيقاته، ويدلف إلى غرفة أبيه، لينام كالعصفور بين يديه.

إذا استبدَّ به القلق استيقظ، ومدَّ يده في الظلام، يتحسَّس وجه من ينام بجواره، يتفقده: يعود لينعم بنومه من جديد، حال وجد خدًا خشنًا يطمئن -حينها- أنه لا يزال في حضن أبيه.

بدأ تعلقه بأبيه يتمدد بالتدرج، ليملأ نصف الفراغ الذي تركته أمه، الآن راح يفتل حبلاً متينًا، مع من يبلل قلبه الظامئ إلى الحنان، تراجعت تطلعات الرجاء وهو يستجدي من شقيقاته حاجته إلى العطف، كلهن يتعمدن إهماله، والتذمر من ملاحقته لهن، بحثًا عمن يؤنسه ويدفئ شعوره بالوحدة الباردة.

الآن... اكتمل بدر أبيه في سماوات نفسه المظلمة، أضاء عتمة الحزن في قلبه البريء، وأشعل مواقد الشوق إليه طوال اليوم،

ينتظره على عتبة الدار بالساعات، وعيناه هناك على أول الحارة، ينتظر أن يهل هلاله، قافلاً من عمله كل صباح.

في عمله أو أثناء غدوه ورواحه، يتذكر ممدوح!.. لأول مرة يشغل الولد بال أبيه... يبتسم بينه وبين نفسه، يهز رأسه في دهشة، لا تفارقه وشوشة مرحة يتساءل باستغراب:

ـ كيف غفلتْ عيني كل هذه السنوات عن هذا الطفل الجميل؟!.. تبًا للشقاء اليومي وراء لقمة الخبز!

بدأت ساعات العمل تمر بطيئة متثاقلة، يتابع كل حين عقارب ساعته، ينتظر بلهفة لحظة التوقيع في دفتر الانصراف... يُسرع الخُطى إلى البيت، مرفرفًا على أجنحة الشوق إلى ممدوح، تتحول دقات قلبه طبولاً في صدره، وهو يراه يركض نحوه متعثرًا، يسقط وينهض، ثم يثب إليه متعلقًا في سترة العمل الزرقاء.

مع الوقت باتت علاقة ممدوح مع أبيه، علاقة «متشددة» لا تتسامح مع أية لحظة انفصال، حتى في أوقات الاستثناء: الذهاب إلى المرحاض أو العمل.

ظلا على هذا الحال، إلى أن انتظم في كُتَّاب القرية، لتعلُم القراءة والكتابة وحفظ ما تيسَّر من القرآن، وبلوغه سِنَّ الالتحاق بالمدرسة فيما بعد.

(٢)

يلعب ممدوح مع أقرانه في الحارة، خلا بعضهم إلى بعض، يتهامسون بعيدًا عنه، بين هنيهة وأخرى يرمقونه بطرف أعينهم بنظرة تشابهت عليه، لا يعرف ما إذا كانت شفقة أم تفوقًا أم تعبيرًا عن التعالي.

استبدَّ به القلق، يتذرع بأي شيء، ليكون قريبًا منهم، عساه يسترق السمع، فيجد ضالته التي عمدوا إلى اخفائها عنه.

بسرعة أنهوا عُزلته التي فرضوها عليه، وعاد إلى صفوفهم يرتع ويلعب، ولكن حُزنًا بلون الليل، غمد في قلبه الصغير نابًا، أفرغ منه رحيق المؤانسة بالأقران، واستبدله بشعور عميق بالمرارة، وخيبة الأمل: كان يراهم عوضًا عن غُربته في بيته بين شقيقاته.

راحت الشمس، تسقط مستسلمة بهدوء، في جوال الأفق البعيد، وبدت البيوت مذعنة مستكينة، في قبضة الليل الموحش، وتفرَّق الأطفال يلهثون كل إلى بيته، ونام ممدوح ليلته بين شقيقاته، يحدق لوقت شاردًا، في سقف الغرفة... يزعجهن تقلبه المتكرر والسريع في فراشه، يقطع عليهن استغراقهن في النوم. تتذمر إحداهن، تناديه غاضبة من تحت الغطاء:

ـ نام يا للي ما تتسمى! انهد! رينا يهدك!

مضى يفكِّر فيما كان يتهامس به أقرانه بعيدًا عنه... غير أن شقاوة اللعب في النهار، وجسده المكدود من التعب، تغلبا على

أرقه، وصخب الأسئلة وضجيجها في رأسه... ليغفو ويغيب عن أحزانه، موغلاً بلا وعي، في قبو النوم اللذيذ.

في الصباح رفس غطاءه بقوة، ونهض يركض نحو باب البيت، ترامى إليه أصوات أقرانه، وهم يتصايحون بالحارة في غبطة، ينادون على بعضهم، كلٌ يستعجل الآخر، ويحذره من فوات الوقت... غاب اسمه، لا أحد يذكره ولا أحد يستعجله ولا أحد يحذره!

فتح الباب. صعد إلى عتبة الدار. رآهم في هيئة جديدة عليه، يرتدون مريلة المدرسة البفتة بلونها البُني! نادى عليهم مرتبكًا:
ـ أمهلوني ريثما أبدّل ثيابي.

رمقوه صامتين بوجوه غامضة الطلعة! لم يمهل نفسه ليتأملها، وقفل عائدًا يتعثر في خطواته إلى أمه، يحثها بلهفة استبدال ملابسه ليلحق بأقرانه!

نظرت إليه مستهزئة... ثم نهرته بحدة:
ـ أنت الآن... لا ينفع!

ـ لِمَ يا أمي؟!

أدارتْ له ظهرها بجفاء... وفتحت ضلفتي نافذة غرفتها، المطلة على الحارة، ونادت جارتها «أم علي»:
ـ تعالي نحضر الحناء وحلاوة نتف شعر الإبط والعانة.

وثب مهرولاً ببجامة النوم المتسخة، يركض خلف أقرانه، يلتفتون إليه بلا اهتمام، اقترب منه صديقه «محي الجمل»، ينصحه مشفقًا، بالعودة إلى البيت، وممدوح سادرًا في غيّه، لا يلوي على أحد.

دلف بينهم إلى الفصل، جلس مثلهم على «تختة» شاغرة، أمسك المُعلم كشفًا مدرجًا به أسماء تلاميذ الصف، ومضى ينادي عليهم الواحد تلو الآخر، إلى أن فرغ من تلاوة الأسماء كلها، ثم استدار إلى السبورة، وقبل أن يخط بإصبع طباشير شيئا، وقف «ممدوح» مناديًا:

ـ أنا لم أسمع اسمي... يا أستاذ!

ـ ما اسمك؟!

ضجَّ الفصل بهمهمات أقرانه في الحارة... والمعلم مشغول بمراجعة القائمة... ثم أعاد عليه السؤال:

ـ قل لي ما اسمُك مرةً أخرى يا بني!

في الأثناء غادر أحدهم مقعده، وهمس في أذن المعلم بكلمات، أمر بعدها ممدوح بمغادرة المدرسة، لأنه «لا ينفع»!

لم ينبس... وخرج مطأطئ الرأس حزينًا، بعيون مكسورة، لا تقوى على النظر في عيون أقرانه، وهي تلمع ببريق التفوق والتميز.

استدار إلى الباب الرئيس، وحدَّق في المبني طويلاً، مضطرب الأفكار، لا تكاد تحمله قدماه، تطوقه أسئلة حائرة، وتتعقبه خيبة الأمل، في كل من استودع عنده قلبه الطيب: البيت، أقرانه في الحارة، والمدرسة!

على مشارف الحارة، صادف أباه عائدًا مبكرًا من عمله، نادى عليه بصوت مبحوح يقطر حزنًا، تلقفه بين يديه، مسح دمعتين رائقتين، تعلقتا بين جفنيه السفليين، وخديه المكتظين بالشحم، حمله بصعوبة وهو «يحزق»، على ذراعه

الأيسر، وراح يمسح شعره الناعم والمسدول، بيده اليمنى، يعده... ويُمنّيه:

ـ كن قرير العين... لن تجد من اليوم إلا ما يسّرك.

أسند رأسه على كتف أبيه، وهدأت أنفاسه اللاهثة، يتوسل بصوت مخنوق:

ـ أريد أن ألحق بأقراني في المدرسة يا أبي.

ـ لا تقلق... سيحدث عندما تبلغ من العمر ست سنوات... العام القادم ستكون أول المقبولين.

أنزله برفق وهو يهدهده... جلس قبالته القرفصاء، لثم جبينه... أمسكه بحنان من كتفيه، يهزه هزًّا خفيفًا:

ـ سأجعل منك طفلا تُضرب إليه أكباد الإبل.

لم يفهم الصغير ما يعينه أبوه، ولكن راق له كلامه، ثقة في هذا النبع الصافي، الذي أحال حياته القاحلة، إلى حدائق ذات بهجة.

التفت الأب إلى لفافة حصير و«طبلية»، مسنودتين على الحائط، حملهما وبسطهما وسط الدار. لم يمض وقتٌ طويل، حتى ازدحمت الطبلية بالكراسات وأقلام الرصاص، وممحاة و«براية»، وراح يعلّمه يوما بعد يوم، ما لم يتلقاه أقرانه الأكبر منه سِنًّا، من علوم وفنون في المدرسة.

لفت نبوغه المبكر، اعجاب كل من رآه، وهو يتلو على أبيه آيات من الذكر الحكيم: الغُنّة، الإضغام، المد، الوقف والابتداء، واتقانه حل العمليات الحسابية بمهارة، تشي بمستقبل ممتد، ووجاهة اجتماعية ومنزلة علمية متوقعة.

تمر الساعات والأيام والشهور بطيئة وثقيلة على ممدوح، يتطلع بلهفة يوم ارتداء مريلة المدرسة البني، حاملاً بزهو، حقيبة كتبه الدّمور، ليثأر من الجميع: أقرانه الذين تعالوا عليه، وشقيقاته «القاسيات»، الفاشلات في الدراسة، وأمه التي اعتبرته عبئًا على تطلعاتها التافهة، فأهملته لولا رِقة قلب أبيه وشفقته عليه.

(٣)

قبل أن يدق «الفرَّاش» جرس المدرسة، إيذانًا بنهاية «الفسحة»، تذكر ممدوح حاجةً له، نسيها في حقيبته المتروكة، في درج التختة، ركض يقطع الطريق مرتبكًا، مثل أرنب يثب هاربًا مذعورًا من شيء يهدده، دفع باب فصله الرابض معزولاً آخر الطرقة: النوافذ مغلقة الشيش، والفصل نصف مظلم، سمع «تأوهات» شبقة وهامسة ـ لم يعرف معناها في قاموس «المُتعة»، إلا عندما شارف أولى سنوات البلوغ ـ والمعلم ينهض مرتبكًا، يدسّ بيده المرتعشة، شيئًا داخل فتحة بنطاله، ومعلمتان تجلسان القرفصاء بين فخذيه، نهضتا بخجل، لحظة سماعهما خشخشة حذاء ممدوح، وطفقتا يستران شيئًا، يشبه صدر أمه، الذي رآه ذات يوم، وهي تبدل ملابسها في غرفة نومها.

تدافع التلاميذ إلى الفصل، وانصرفت المعلمتان، وبقي المعلم واقفًا، ريثما يستقر كل تلميذ على مقعده، هادئا وكأن شيئًا جللاً لم يقع، تعلو سحنته سيماء السكينة، مقتنعًا بحجج نفسه وهي تلهث بداخله، بحثًا عن يابسة قريبة من قاربه المذعور، قبل أن يدركه الغرق في الفضيحة:

ـ الطفل لا يزال صغيرًا مغمض العينين... ومن المرجح أنه لا يعي معنى ما حدث

ولكن الممدوح – الذي لُقِّب بالطفل «الفلتة»، وهي شهادة تواترت بين معلميه – فقد شقّت الواقعة، في أرض روحه

الغضة، نتوءًا وسهولاً وأخاديدَ، بقيت آثارها رواكد، مثل الماء الآسن، بين جدران ذاكرته الصلبة.

في العطلة، غادر أقرانه لقضائها، في قُراهم بمحافظات الدلتا. ممدوح توفيت جدته لأمه، قبل أن يُولد، وهي آخر من كانت تربط عائلته، بقريته التي تعتاش على سلة حقولها وغيطانها، مدينة الزقازيق الكسولة، فبقى بقريته الصحراوية وقد اكفهرت واجهات بيوتها الفقيرة، عابسة في جوف صحراء الإسماعيلية القاحلة، يمضغ علكة الوحدة في ملل، مطرقًا في صمت، يفتش عن حيلة، تعوضه غياب أقرانه وأترابه.

(٤)

تجنح الشمس بخُطى مستفزة، نحو بياتها اليومي عند الغروب، غافلتها نسمة هواء مبللة بمياه القناة، امتلأت أنفاس ممدوح المتوثبة، برائحة «اليود» وعطر البحر، غالب خدر النعاس اللذيذ وقت العصاري، غادر متثاقلاً عتبة بيته، مستقبلاً صهريج المياه «التقفيصة»، الرابض فوق تل الرمل. تسوَّر جدارًا إسمنتيًا متوسط العلو، يطوق قاعدة الصهريج وانتصب فوقه، رأى من بعيد، صِبية ليسوا غُرباء عنه، يتحلقون حول طفل لا يعرفه، وكزت هيئتهم ريبته وحثت فضوله، فالمكان يمثل الجزء القاسي من جسد القرية، وكاتم أسرارها الأزلي، في خاصرته تُرتكب الجرائم، وكل ما هو مستقبح وفاحش.

خلع صندله البلاستيك، دسَّه تحت إبطه، أوغل بقدميه الصغيرتين، في كثبان الرمل الدافئ، يتسلل إليهم ملتفتًا ومرتبكًا، رمقه بعضهم من بعيد، لم يهتموا! وظلوا على هيئتهم المريبة... يقترب أكثر فأكثر! غرَّه سكوتهم على أن يغامر، ويدنو إليهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، حتى وقف مطمئنًا على رؤوسهم... حدق بعضهم به ولم ينبس! وغيبت الآخرين، قلوبهم المستذئبة، في أحراش الشهوة، فلم يشعروا بوجوده، وهم يراودون الطفل عن نفسه، يعرضون عليه من أجسادهم، ما لا يحل لهم، الكشف عنه من عورة، والطفل يبكي ويتوسل، ويكور جسمه مثل القنفذ، يدفع عن نفسه، أياديهم الممتدة إليه بالسوء والفحشاء.

جاءته النجدة من حيث لم يحتسبوا: ترامى إليهم، من بعيد، خلف أكوام الكثبان المتموجة، أعداد كبيرة من الرؤوس وعليها «الباريه» الميري، كانوا قد انصرفوا لتوهم من ثكنة «الجلاء» العسكرية، يعبرون خطوط السكة الحديد، يقطعون صحراء «المثلث»، حيث استفردت الذئاب الجائعة بالفريسة العجفاء.

جزت عواصف الخوف، رقاب قلوبهم الآثمة، وتصايحوا في فزع:

ـ عساكر قادمون!... دعوه... هيا غادروا المكان بسرعة!

تفرقوا... واختفوا وكأنهم فص ملح وذاب، في صهريج المياه الكبير «التقفيصة».

انتعل ممدوح صندله البلاستيك، وقفل عائدًا شارد الذهن، تدوي في قعر أذنه، تأوهات معلمته بين فخذي المُعلم، ولم يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فيما رآه من الصِّبية، في صحراء المثلث، فقد عرف ـ لأول مرة ـ معنى البلل الذي أصاب سراويلهم، وهم يراودون الطفل عن نفسه، واكتشف مبكرًا، ابن التسع سنوات، كيفية «إمتاع النفس» عندما يخلو بها بعيدًا عن العيون.

(٥)

في ليلة من ليالي الصيف السمجة، والهواء يصفع الوجوه، بما جمعه من مخلفات، هجير الظهيرة، على أسطح كثبان الرمل، وكأنها لا تحمل وِدًّا لأحد، شارك ممدوح أصدقاءه، مشاهدة ليلة حناء جارته الشقراء «عزيزة»، قبيل زفافها على عريسها «سعيد العطشجي».

أقبلت النساء وصديقات العروس، في منزلها المقابل لبيت ممدوح، بعضهن رقصن بخلاعة، وأخريات ضحكن بدلال، يتمايلن مع الأهازيج بغمزودلع وغنج...يردِّدن:

- «مقدرش أدق التوم/ إلا بقميص النوم/ مقدرش أدق الكسبرة/ أنا لسه عروسة صغيرة»

- «هلبس لك لموني/ وأقلع لك لموني/ حاسب على عيوني/ ليلة الصباحية/ هلبس لك مقطع/ واقلع لك مقطع/ ع السريراتمطع/ ليلة الصباحية».

- «يا منجد على المرتبة/ اعمل حساب الشقلبة».

سمع ممدوح همسات جريئة، ولَمزات عن يوم غد، امتد الوقت إلى ما بعد موعد نومه، وقبل أن تختل قدماه ويغلبه النعاس، جاءت أم عزيزة بصينية تطوقها الشموع، وضعتها - وهي تطلق الزغاريد - وسط الصبايا. ونهضت من بينهن سيدة عجوز، وراحت تنقش بالحناء، في كف العروس وعلى كعب قدميها، قلوبًا ووردًا ودوائر بسيطة، تتوسط كف

عزيزة، فيما تدافعت صديقاتها نحو الصينية، يلقين عليها النقطة، ويلتقطن منها قطعا من عجين الحناء، ووضعها على بشرتهن.

جحظت عينا ممدوح، وهو يرى الصبايا يقرصن عزيزة في ركبتها، وتساءل في نفسه:
ـ لِمَ يؤلمنها ليلة زفافها؟!

لا يعي بعد مغزى ما حدث، حتى ضجَّ المكان، بصياح النساء وهن ينادين على الصبابا:
ـ «اقرصيها في ركبتها تحصليها في جُمعتها».

حينها لمَلم بعض قصصات المغزى المبعثر في خياله الغض، وتوقع بأنه من قبيل البركة والفأل الحسن.

في اليوم التالي، عُلقت الزينات على واجهات البيوت، وأُضيئت الحارة بالكلوبات، فبدت الجدران التعيسة كظلال باهتة، وأطلق حفل الزفاف ـ ولو مؤقتًا ـ سراح الأحزان الحبيسة في القلوب، التي أعياها اليأس، والأجساد المكدودة بالشقاء، والجري طوال اليوم وراء لقمة عيش، لا تكفي يومهم، فيبقى الغد شبحًا مثل «جِنّية» البحر، لا ضمان للنجاة من شرها.

لم ينتظر سعيد العطشجي، ريثما تُقضى صلاةُ العشاء، ويخرج المهنئون من الجامع القريب لداره، اقتحم على العروس دارها بغتة، أفسحت له الصبايا طريقًا، إلى حيث تستوي عزيزة، على عرش ليلتها الموعودة، لثم جبينها برقة، وحملها بحنان، مشى بها خطوات، وانزلها برفق على عتبة باب البيت.

يمَّمت الزفة وجهها شطر بيته، الرابض على رأس الحارة، كان

قد بناه بنفسه، طوبة... طوبة، وهو يغني لـ عزيزة:

قلبي يا قلبي يا ابو الحيارى
والله لأعمل لها شارع وحاره
وابنيلها عشه بالني الأخضر
وحبة حبة تصبح عماره
لابدُر الصحرا خُضرة وميه
وازرع الحنه في ايدها وايديا
اهدى يا قلبي صبرك عليا
الصبر هو... هو المُداوي.

(٦)

امتلأ وسط بيت العطشجي بالنساء والبنات والأطفال، وجلس بينهن - وبينهم - ممدوح، يحدِّق في الكوشة، وقد علت سحنته سيماء غبطة صافية. في حين انتظم الرجال في تجهيز مسرح بدائي فقير، في الخلاء الصحراوي، بجوار «التقفيصة» صهريج المياه، برص عدد من عربات الكارلو يسع فرقة «الآلاتية» و«الغوازي/ الرقّصات» اللاتي استأجرهن العطشجي لإحياء ليلة العمر، وفاءً بوعده لعروسه الشقراء عزيزة.

جلس سعيد والعروس على كنبة، تكسو مرتبتها القطنية، ملاءة مزركشة، مرصعة بالورود والترتر، وعلت أصوات النساء والبنات تلهج بالأهازيج، يرددن:

«افرحي يا دي الأوضة

جياكي عروسة موضة

افرحي يا دي المندرة

جياكي عروسة مسكرة».

فجأة انتصبت أم عزيزة وسط النساء، تخطت رقابهن، وهي ترش الملح عليهن وعلى العروسين وتغني:

«أوعيلو يا بت أوعيلو

الضابط يبقى زميله

أوعالها يا واد أوعاولها
ده العمدة يبقى خالها».

لم يمضِ وقت طويل، حتى تقدمت أم سعيد العطشجي إليه، وهمست في أذنه بكلام، نهض بعدها ومعه عزيزة. تأبطت ذراعه. توجها إلى غرفة، تربض غير بعيد من حوش الدار، تتعقبهما العيون بالغمز واللمز والضحكات الخليعة.

أُغلق عليهما الباب، ثم ضجَّ المكان بقرع الطبول. علا دويها. فاق قدرة الأذن على الاحتمال، وكأن ثمة ما يريدون الشوشرة عليه فلا يسمعه أحد.

اشرأبت الأعناق وتعلقت العيون بباب غرفة النوم، إلى أن خرج إليهن العطشجي، يدلف بيد، شيئًا يريد ستره، داخل فتحة بنطال بيجامته الحرير، وملوِّحًا بالأخرى بمنديل أبيض من «الكريب» الخفيف عليه بقع دم فاقع لونه.

إذ ذاك... أطلقت الزغاريد زخات بهوس، وأقبلت النساء يقبِّلن أم العروسة:
ـ مبروك أم عزيزة... أرفعي رأسك في البلد كلها.

وبعضهن يلهجن بالغناء:
«الليلادي للصبحية / اوعي يبعد ثانية عنك / اوعي واحدة تاخده منك / ما تكشريش أبدًا في وشه / لا العصفور يهرب من عشه / ويروح للي بيحبوه / الصبح غنا والعصر غنا / والزعل ما هتشوفوه».

في الأثناء، حُملت الكراسي من مقهى حمودة «القهوجي»، في البرّ الثاني من البحر، رُصت بعناية أمام عربات الكارلو التي

رُتبت كمسرح بدائي في الخلاء الصحراوي أمام «التقفيصة»، وهي صهريج مياه كبير، خلفه خط سكة حديد يمر برصيف للركاب وآخر للبضائع، يفصل الخلاء الحاضن لنصف بيوت قرية نفيشة «البدوي» المَبنيّ بالطين والقش عن نصفها الهجين، لا هو حضري المظهر ولا بدوي الهوية. يشبه واجهات مطلاة، لإخفاء قبح عشش الصفيح خلفها.

تناهى إلى شباب القرية وعمال «الدِّريسة»، أن «غوازي» من الزقازيق القريبة، سيحيون ليلة زفاف سعيد العطشجي، عند «التقفيصة».

أقبل شباب يكتم شبقه، وهم يلتهمون بعيونهم الجائعة ـ في الصباح الباكر أو بعد الظهيرة ـ بنات المدارس وهن بالبلوزة والجيبة الكحلي القصيرة، بعضها ينحسر إلى ما فوق الركبة بقليل، تتعقبهن «البسبسة» و«الصفير» وكلمات غزل، يتجاوز بعضها حدود الأدب إلى البذاءة وفحش الكلام.

غالب عمال الدِّريسة، حاجة أجسادهم الشقيانة إلى النوم، بعد يوم طويل من تفقد قضبان السكة الحديد ومعالجة ما أصاب بعضها من عطب... تركوا أطفالهم وزوجاتهم، في بيوت متراصة على جانبي شريط السكة الحديد، مبنية من الطين اللبن، ومسقوفة بالصفيح الصدئ والخشب المتهالك.

تدافعوا صوب التقفيصة، لاقتناص لحظات من المتعة، من محترفات عرض الجسد بخلاعة، عساها تفتح شهيتهم على زوجات واهنات من الفقر والمرض، ولا عُدن أرضًا تغري على الحرث.

انصرف النساء إلى بيوتهن، وتركن سعيد العطشجي لينعم بزوجته عزيزة.

انسلَّ ممدوح من بين الزحام والأجساد المتلاصقة والأرجُل المتشابكة، مستدعيًا في خياله المتوثب، تأوهات مُدرسته بين فخذي المعلم، والطفل الذي راوده الصبية عن نفسه، في الظهير الصحراوي المتبجح، وقد اكتملت في رأسه بعض تفاصيل الصورة المبعثرة أجزاؤها، وأن ثمة ما يجمع بينهما وبين ما حدث في غرفة نوم سعيد العطشجي والمنديل الأبيض المبلل ببقع الدم.

شاغلته رغبة باهتة في الانزواء إلى ركن تستره العتمة، ودس يده إلى ما بين فخذيه، واستدرار لذة مجهولة، كان قد اكتشفها مبكرا، قادته إليها مشاهداته في «الفصل» و «الصحراء المتوقحة» والمنديل الذي خرج به العطشجي على الناس.

كانت الرغبة ضعيفة الإلحاح، ليس ثمة ما يدعو إلى النفخ في قربتها الشفيفة، غالبها بلا مشقة ولا شعور بالندم على تفويت الفرصة، وبسرعة يمم وجهه مهرولا نحو التقفيصة ليكمل سهرته مثل بقية الناس بين الغوازي العاريات.

ضجَّ المكان بالناس، وامتلأت الكراسي عن آخرها، ومن لم يجد كرسيا، صبر على الوقوف طويلاً بالقرب من عربات الكارلو، أو على أطراف الجالسين على الكراسي، وتلاصقت الأجساد وانتفخ الزحام واتسع وامتد إلى المصاطب أمام البيوت المواجهة غير بعيد عن التقفيصة.

في العتمة... خلف صهريج المياه، رصَّ «حمودة القهوجي»،

صناديق البيرة، وبراميل وجراكن البوظة... رجل قمحي اللون، قصير القامة، فقد نصف أسنانه من التسوس، والنصف الاخر أسود مثل الفحم، إذا ضحك بدا فمه الصغير، مثل قعر الكهف المظلم. يشبه عصفور «أبو الفصاد» كثير الحركة يقفز بخطوات قصيرة وسريعة، يحرك رأسه للأمام أثناء المشي، سيالة جلبابه اليسرى واليمني منتفختان بلفائف الحشيش، ينادي عليه هذا وذاك، يثب بخفه إلى كل من يطلبه، يمد يده في سيالة الجلباب، يخرج قطعة الحشيش، يدسها خفية في يد الزبون، وبسرعة يستدير إلى غيره، الذي عادةً ما ينتظره متذمرًا، من نفاد صبره على الانتظار.

استدعى حمودة القهوجي، صبيًّا صغيرًا ليساعده على الوفاء، بطلبات أهل المزاج، يعلن عوزه وبؤسه من خلال جسده النحيل وساقين يشبهان أرجل الماعز، وجلباب صعيدي فضفاض ورث، يستر عظم جسده الواهن الخالي من اللحم.

يرصُّ الصبي بالماشة على الطاسة النحاسية، قطع الفحم المتقد فوق المعسل، ثم يتفقدها بنفسه بالكركرة وسحب الدخان الأبيض، على رئته مارًّا بكل جهازه التنفسي، قبل أن يتركها بين يدي الزبون.

قبل أن تشرق شمس اليوم التالي، كان الصبي يسعل ويبصق بلغمًا مخلوطا بالدم، حملوه بكسل. مُدِّد جسده المعتل على ظهر عربة كارلو. نقلوه بصعوبة، إلى الوحدة الصحية، غرفة صغيرة «متران في مترين»، اُستقطعت من مبنى المسجد الوحيد بالقرية. لقى حتفه هناك، بعدما عاجله الطبيب بحقنه بنسلين.

لم يشهد جنازته إلا حملة نعشه، وأمه الأرملة التي كانت قد جاءت من الصعيد، جريًّا وراء «لقمة عيش» مغموسة بالعرق المُر، وسط بلدياتها الشيالين العاملين في هيئة قناة السويس.

(٧)

صعد خمسة «آلاتية» عربات الكارلو/المسرح، أولهم يحمل العود والثاني أوكرديون والثالث نايًّا والرابع طبلة والخامس يحمل الرِّق.

وجوه شاحبة، وعيون غائرة، وخدود مشفوطة مثل القبو، وأجساد عليلة انكمشت تحت بدل قديمة باهتة اللون، تعلو وجوههم سيماء عدم الرضا، ولكنه الفقر الذي أذل مروءة الرجال.

تسلل ممدوح بين الزحام، يتخطى رقاب البعض، ويحشر جسده الصغير بين الكراسي، يفسحون له للمرور شفقة به، متخطيا الصف تلو الآخر، إلى أن جلس على الرمل بين أطفال من عمره وصبية أكبر منه قليلاً، لا يفصلهم عن المسرح إلا أقل من متر أو يزيد بقليل.

وثبت إلى المسرح الراقصة «شفشق» ببدلة رقص، مشقوق نصفها الأسفل، يُظهر جزءًا من سروالها الداخلي، وبصدر وبطن شبه عاريتين، إذ ذاك دوى الصراخ بهيستريا، وخُلعت الطواقي، وبدت الرؤوس عارية، تعلو وتهبط بين عيدان غاب الجوزة، وسحائب الدخان الثملة بعبق الحشيش، تتصاعد مثقلة فوق المكان، قبل أن ترقد بسكينة بين يدي الظلام القريب. يلحون عليها بأغنية «دبور قرصني»!... وهو «استربتيز» إباحي بلدي، تبدأ الراقصة بـ«دبور قرصني»

فيردُّ الجمع: «قرصك فين؟»، فتشير بإصبعها إلى عنقودي العنب، تحت حمالة الصدر الشفيفة، ثم تتجه جنوبًا، حيث مناطق القيظ اللذيذ، حتى تلامس أغلى ما تشتهيه العيون الجائعة من فواكه محرمة، فتضرم النار في أعواد الحطب المكدود من حولها.

يحدق ممدوح بعينين زائغتين، إلى حيث تُضرب عند سفحه خيام الرجال، ويذهب كل منهم بخياله، إلى حيث يُغمد في أرضها الشراقي وتده، تتزاحم الصور اللصيقة بالمشهد، أمام عينيه: يباغته صدى تأوهات معلمته في الفصل نصف المظلم، وعبث الصبية بمواضع عفتهم في الصحراء المتفحشة، ومنديل سعيد العطشجي المبلل ببقع الدم.

اقترب ممدوح، من مشارف فهم معنى اللذة الغامضة، التي نضجت بداخله، قبل موسم حصادها الطبيعي... «بلغ» ممدوح قبل أن «يبلغ» طبيعيًا، يقضى ليله ونهاره يلهث بحثًا عنها، يتلصص، يتعمد ملامسة أجساد صبايا الجيران في الحارة، يستدرجهن إلى مزرعة المانجو القريبة، ويقضى معهن وطره من فوق الملابس.

(٨)

فجأة ساد المكان الفوضى، وباغتت هراوات الشرطة السكارى، وطارت الكراسي في الهواء، أكثرها فوق الرؤوس وبعضها يتصيد الكلوبات المضيئة لإطفائها.

خيَّم الظلام واختفت الراقصة والآلاتية، وهوت يد الشويش «فرج» الغليظة، على قفا حمودة القهوجي، يجره من ياقة جلبابه إلى عربة الشرطة، يرافقه ما تبقى من صناديق بيرة وبراميل البوظة.

في قسم شرطة الضواحي بالإسماعيلية، جثا حمودة القهوجي على ركبتيه بين يدي الشاويش فرج:
ـ أُقبّل يدك يا «أبو عطيات» تُخلي سبيلي لأجل عيالي الغلابة!

مسح الشاويش فرج شاربه المبروم، مثل قرن الكبش متجهمًا. يتوعده بصوته الأجش:
ـ وشوارِبي... لأسلمك بيدي للنيابة والمحكمة والسجن...ولن تفلت منها مثل كل مرة.

نودي من بعيد: «انتباااه»!

دخل بعدها الضابط النوبتجي. انتفض الشاويش فرج، واقفًا وكل من حوله من العساكر، أدوا التحية العسكرية:

- إيه مشكلته يا شاويش؟!

-ضبطناه يا فندم وهو يوزع الحشيش على الناس في مكان كله فِسق وفجور!

– يعني إيه فِسق وفجور؟

– غوازي يا فندم يرقصن ببدل عارية بين السكارى ومتعاطي الحشيش.

– حسنًا!! أين الغوازي يا شاويش؟!

ارتبك الشاويش فرج ولم ينبس. رمقه الضابط بإزدراء ثم صرف عنه عينيه، ونادى على حمودة القهوجي بصوت خشن وعال:

– تعالى ورائي ياله!

في مكتب الضابط، شاهد حمودة المنفاخ والكرباج، معلقين على جدار الحائط خلف مقعد مكتبه الصاج، خذلته قدماه، وخارت قواه وسقط على الأرض، قبل أن يلتفت إليه الضابط ليستجوبه بنفسه.

– انهض يا..... (كلمة بذيئة)!

تعثر حمودة في قيامه وجثا على ركبتيه وبكى. رقَّ له قلب الضابط وسأله بهدوء:

– إذا كان لا تعنيك صحة الناس وأموالهم وخراب بيوتهم... خاف ربنا يا حمودة! سأساعدك هذه المرة على أن تعدني... سكت ولم يكمل.

حمودة قهوجي وابن بلد و«صايع» ورد سجون وضيف دائم على أقسام الشرطة... لم يطمئن لهذا «الحنان» البوليسي، ولا يعهده إلا إذا كان أداة تغرير وتوريط وجرجرة ناعمة إلى فخ الاعتراف بجريمته.

– هو الحشيش حرام يا باشا؟!

تغيَّرلون وجه الضابط ونفرت عروقه وجحظت عيناه واحمرت غضبا:

–إنت هتستعبط يا روح أمك؟!

– يا باشا أنا راجل بتاع ربنا... ومن أهل الطريق!

استرد الضابط بروده وألقى بظهره على مسند الكرسي... ينصت لوشوشة نفسه (حلو!.. أهي تسلية... الليل طويل والوقت ثقيل وممل)... فقال متهكمًا:

– كيف؟! أشرح لي يا مولانا!

– والله يا يا باشا، أنا سألت مرة شيخي في الحضرة، في حلقة الذِّكر (ما إذا كان الحشيش حرامًا؟!).

زمَّ الضابط شفتيه وقد كست وجهه علامات التهكم:

– أكمل يا صاحب الفضيلة!

– قال إنه سمع من شيخه الكبير، شيخ الطريقة، أنه حلال وليس حرامًا!

– عرفني ما قاله بالتفصيل، وإلا قطعت رقبتك!

– عندما استفتيته، أنشد أمام من حضروا هذه الأبيات:

في خمار الحشيش معنى مرامي يا أهبل العقول والأفهام
حرَّموها من غير عقل و نقل وحرام تحريم غير الحرام

أطرق الضابط قليلاً، وأشعل سيجارة «هوليود» وأستأنف طرح الأسئلة:

– ما اسم الشيخ الذي أفتى بحلالها شِعرًا؟

– والله يا باشا سمعته يقول إن اسمه «ابن الصاحب»؟!

– أريد عنوان بيته... أين سكنه؟!

– يا باشا عنوان وسكن إيه؟... لقد مات و«شبع موت»!.. أنا سمعته يقول إنه عاش في زمن بعيد جدًا، أيام الصحابة أو التابعين... أو أيام الخليفة مولانا المعظم... لا أذكر!

– حسنًا! ما اسم شيخ الحضرة؟

سكت حمودة... وحاول أن يراوغ ويتهرب من الإجابة... شخط فيه الضابط محذِّرًا:

– وله... واللهِ أنفخك!

دوَّن الضابط اسم شيخ الحضرة في ورقة صغيره... ثم نادى على الشاويش فرج:

– فتشوه ثم اتركوه يذهب إلى حال سبيله.

تفقَّد الشاويش جيوب حمودة وسيالة جلبابه وأخرج عددًا من قطع الحشيش الصغيرة ملفوفة داخل ورق بفرة... التفت حوله بحذر، ثم دسَّها في جيب معطفه الميري، وركل بالبيادة حمودة في مؤخرته:

– غورمن وجهي يا ابن الـ..... (كلمة نابية).

(٩)

ترامي إلى القرية رنَّات زغاريد، وأصوات مزامير وطبل بلدي، آتية من البر الثاني من الترعة، هرول ممدوح وأقرانه في الحارة، صوب المكان، عبروا خلال «مشَاية» خشبية، خُصِّصت للمُشاة، بعيدًا عن شريط سكة الحديد العابر فوق فلنكات الكوبري.

هناك... كان حمودة القهوجي يحتفل بمناسبة إخلاء سبيله من قسم الشرطة، يعتلي طاولة خشبية تتوسط المقهى، والزبائن يتحلقون من حوله، وقد لفَّ تلفيعته حول وسطه، وانخرط في الرقص.

سأله أحدهم:

ـ احكِ لنا يا معلم... كيف أفلتَ منها؟

توقف حمودة عن الرقص وحلَّ التلفيعة من على وسطه، وشدَّ نفسًا عميقًا من جوزة، رفعها إليه المعلم جودة صاحب «الطابونة» التي بجواره... نفث دخانه زامًّا شفتيه بانتشاء وقال:

ـ أمسكوني وقطعة حشيش في يدي... قبضتُ عليها كالقابض على الجمر... أنكرت حيازتي للحشيش... فأمرني الضابط بفتح يدي... فلما فتحتها وجد قطعة الحشيش وقد تحولت إلى «كارميلة»!... بُهت وجه الضابط واعتذر لي وأمر بإخلاء سبيلي: ـ في أمان الله يا مولانا... لا تنسانا من بركة دعائك!

نزل حمودة من على الطاولة. سحب كرسيًا شاغرًا وجلس عليه... أطرق هنيهة ثم أستأنف حدوتته:

ـ وجثا الشويش فرج بجلالة قدره على ركبتيه بين يديَ وهو يلح علىّ أن أقبل عذره وأسامحه وأن أدعو له بالبركة والترقية وطول العمر.

ضجت القهوة بالأصوات المبحوحة من الدخان. منهم من يقهقه، وبعضهم يسعل من حشرجة الضحكات في الحناجر المحشوة بالنيكوتين الأسود، وقليلون طيبون راقت صدورهم لـ«كرامة» حمودة الحشاش.

(١٠)

في طريق العودة إلى البيوت، سمع ممدوح من أحد أقرانه الأكبر عُمرًا، وهو يروي عن أبيه ما شاهده من كرامات الشيخ عبيد، شيخ الحضرة:

- قال أبي إنه كان مع الشيخ عبيد في مركب فوحلت، فلم يستطع أحد أن يزحزحها، فقال الشيخ عبيد: اربطوها في خصيتي بحبل، وأنا أنزل أسحبها، ففعلوا، فسحبها بخصيته، حتى تخلصت من الوحل.

ضحك أحد أقرانه هازئًا:

ـ هذا رجل ـ لامؤاخذة ـ «علج».

غير أن ممدوح ظلَّ منصتًا، لا ينبس بكلمة، وتذكر أباه، وهو يمشي في الظلام، كل ليلة جمعة، بعد صلاة العشاء، ليشارك في جلسات ذكر الشيخ عبيد، وتناول الدُّقة بالملح والعيش الملدَّن.

ذات ليلة جمعة، نزل أبوه عند إلحاحه، ليصطحبه لمشاهدة حلقة الذِّكر، وكان له ما شاء...

اقترب أحد المريدين بين يدي الشيخ عبيد، وهمس له بكلام، ثم قبَّل يديه وقفل راجعًا بظهره، ليجلس مكانه.

أطرق الشيخ عبيد بعض الوقت، ثم ردَّد بصوت خفيض اسم الجلالة:

ـ الله الله الله الله.

فالتفت إليه الجميع منصتين وكأن على رؤوسهم الطير:
- سألني أخ لكم عما فعله الشيخ حمودة القهوجي ليلة زفاف سعيد العطشجي وما تعرَّض له في قسم الضواحي وما إذا كان الحشيش حرامًا؟!

أشار بيده إلى أحد المريدين. نهض مُقبلاً عليه يتعثر في خطوته. همس في أذنه، وهو يشير بعصاه نحو باب خلوته. خرج المريد. فمكث غير بعيد:
ـ توكل باسم الله يا مولانا... حضوركم أمان للخائفين.

اعتدل الشيخ عبيد في جلسته وقد سكن روعه وقلقه ممن يسترقون السمع خارج الحضرة:
- اسمعوني جيدًا يا إخوان:

(كان شيخي شيخ الشيوخ حيدر ـ رحمه الله ـ كثير الرياضة والمجاهدة قليل الطعام، وقد فاق في الزهادة وبرز في العبادة... وكان اتخذ بإحدى الجبال زاوية وفي صُحبته جماعة من المريدين، وانقطع في موضع منها، ومكث بها أكثر من عشر سنين لا يخرج منها ولا يدخل عليه أحد غيري للقيام بخدمته.

طلع الشيخ ذات يوم، وقد اشتد الحَرّ وقت القائلة منفردًا بنفسه إلى الصحراء، ثم عاد وقد علا وجهه نشاط وسرور بخلاف ما كنا نعهده من حاله قبل، وأذن لأصحابه في الدخول عليه، وأخذ يحادثهم، فلما رأينا الشيخ على هذه الحالة من المؤانسة بعد إقامته تلك المدة الطويلة في الخلوة والعزلة، فسألناه عن ذلك، فقال: «بينما أنا في خلوتي إذ خطر ببالي الخروج إلى الصحراء منفردًا، فخرجت فوجدت كل شيء من

النبات ساكنًا لا يتحرك لعدم الريح وشدة القيظ، ومررت بنبات له ورق، فرأيته في تلك الحال يميس بلطف، ويتحرك من غير عنف كالثمل النشوان، فجعلت أقطف منه أوراقًا واكلها، فحدث عندي من الارتياح ما شاهدتموه». ثم قال: «قوموا بنا حتى أوريكم إياه لتعرفوا شكله». فخرجنا إلى الصحراء فأوقفنا على النبات، فلما رأيناه، قلنا: هذا نبات يعرف بالحشيش، فأمرنا أن نأخذ من ورقه ونأكله، ففعلنا ثم عدنا إلى الزاوية، فوجدنا في قلوبنا من السرور والفرح ما عجزنا عن كتمانه.

فلما رآنا الشيخ على الحالة التي وصفنا، أمرنا بصيانة هذا الحشيش، وأخذ علينا الأيمان ألا نُعلم به أحدًا من عوام الناس، وأوصانا ألا نخفيه عن المريدين. وقال: «إن الله تعالى قد خصَّكم بسِرِّ هذا الورق ليذهب بأكله همومكم الكثيفة ويجلو بفعله أفكاركم الشريفة فراقبوه فيما أودعكم وراعوه فيما استرعاكم».

وزرعتها بزاوية الشيخ حيدر بعد أن عرفنا بهذا السر في حياته وأمرنا بزرعها حول ضريحه بعد وفاته).

ثم نادى الشيخ عبيد:

ـ أين الرجل الصالح حمودة القهوجي؟!

فنهض من بين المريدين مهرولاً متخطيًا الرِّقاب، صوب الشيخ. قبَّل رأسه ويديه وقدميه، ثم جلس بجواره.

ثم رفع كفيه وجهة السماء... مناديًا:

ـ أحبابي...استغفروا ربكم لسوء ظنكم بأخيكم السالك الناسك حمودة.

وفجأة... نهض مرتجفًا وكأنه قد أصابه مَسٌّ من الجن، وهو يردِّد:

- «إلهي جذبك لي أطمعني فيك... قاف جيم سران مع سِرّك. هب لي من نورك ما أتحقق به حقائق ذاتك».

خرج حمودة القهوجي من حلقة الذكر، يرافقه إخوانه منتشيًا، متوجًا بأكاليل الرضا، والحبور، ونيل البركة من شيخهم المبارك، يتلقى التهاني ممن حوله، حتى بلغوا باب مقهاه على ناصية الشارع المطل على الترعة.

(١١)

شوهد الزبائن، وقد غادروا الكراسي، وتزاحموا بالقرب من الراديو، المرفوع على الرَّف وسط المقهى، ينصتون جيدًا لإذاعة صوت العرب.

جلس أبوه منصتًا وممدوح يتثاءب يغالب النعاس، بدعك عينيه ببطن يده الصغيرة. نظر إليه أبوه منتشيًا:

ـ صحصح يا عم ممدوح وانصت معي لـ«أحمد سعيد».

كانت الإسماعيلية ترفل في أعذب شهور السنة؛ شهر مايو؛ يتقاسم أجواءها: بقايا ربيع مُدبِر، وطفولة صيف مُقبل، وشجر ذقن الباشا، يملأ انفاس قرية «نفيشة» بعطر نسائمه الليلية.

وكأن راقصة باليه جميلة ترتدي حذاءً غير مناسب، فتغير كل شيء على المسرح من الجمال إلى القبح، جاء صوت المذيع الزاعق، ليفسد على العابرين، متعة الإحساس بنعمة العقل ولو قليلاً، بعيدًا عن حشيش حمودة القهوجي.

في الأثناء ترامى من بعيد، صوت جنازير الدبابات والمدرعات، وهي تلتهم الطريق الأسفلتي الموازي للترعة، متجهة صوب الإسماعيلية لتعبر القناة ومنها إلى سيناء... اصطف الناس على الشاطئ، يبادلون التحية الجنود بخوذاتهم المموهة، والمطلة من فتحات أعلى الدبابات. وسكنت النفوس إلى خدر الثقة في أن ثمة نصرًا سهلاً على الإسرائيليين يلوح في الأفق.

لم ينم ممدوح ليلته، ظل وهو في فراشه، منصتًا إلى هدير المصفحات والجنازير، وكأنها حدوتة ما قبل النوم، يستعجل السماع إلى نهايتها السعيدة، التي أكدها له أبوه في طريق عودتهم إلى المنزل: إنها الحرب النزهة ورحلة صيد الأرانب المذعورة في تل أبيب.

لم يع ممدوح من القصة كلها، إلا صورة الرئيس الأسطورة، الذي يعبر الترعة بخطوة منه، ويهز صهريج المياه الكبير «التقفيصة» بلمسة خفيفة من إصبع يده، ويحمل بيتنا الطيني على كفه ويلقيه في النهر.

لكن حديث الشيخ «عبيد» عن الحشيش ومتعته ووصايا شيخ الشيوخ «حيدر»، لأتباعه بتعاطيه و«أن الله تعالى قد خصَّهم بسره ليذهب بأكله همومهم الكثيفة ويجلو بفعله أفكارهم الشريفة» وتؤهات معلمته بين فخذي المدرس، والتفحش بين الذكور في الخلاء، ومنديل سعيد العطشجي، وتكالب الدبابير تحت سُرة الراقصة «شفيقة»، حيث قرص شمع العسل، ظل الصوت الأعلى من صرير الدبابات، والأكثر ضجة بين كل الماكينات التي لا تهدأ طقطقتها داخل عقله المتوثب.

(١٢)

عند ظهر يوم ٥/ يونيو، تصايح الناس في الحارة، وتنادوا:
ـ افتحوا «صوت العرب»... اسمعوا أحمد سعيد

دلف الجميع إلى بيوتهم. ضبطوا مؤشر الراديو. انتظروا إعادة البلاغات العسكرية. على آخر النهار، أُعلن عن سقوط ٨١ طائرة إسرائيلية...

ضجت شوارع القرية بالتهليل والتكبير، وركض ممدوح مع أقرانه يتعقبون الطائرات التي تحترق فوق سماوات الإسماعيلية، ثم تسقط ويختفي حطامها في الصحراء الممتدة.

قبيل المغرب صعد حمودة القهوجي «التقفيصة»، ونادى وقد توهجت جبهته ببريق الزهو والانتشاء:
ـ يا أهل «نفيشة» أبشروا... الشيخ عبيد قال لي إنه شاهد من مكانه في خلوته بالقرب من «المقابر» ضباطنا وجنودنا وهم يترجلون داخل تل أبيب يسوقون الأسرى الإسرائيليين كالشياه والغنم.

في الصباح ٦/ يونيو، ابتاع ممدوح نسخة من صحيفة «الأهرام» لوالده من فرشة صحف تحت بلوك السكة الحديد بـ ١٥ مليمًا. تمدد أبوه على حصيرة وسط الحوش. وضع ساقًا على ساق. ونادى عليه باسم الدلع:
ـ اسمع يا «دوحة»... شوف عملنا إيه في الإسرائيليين.

وراح يقرأ بصوتٍ عالٍ مانشيتات الصفحة الأولى من الأهرام:

- «معارك ضارية على كل الجبهات مع العدو... بدأ العدو الإسرائيلي هجومه على الجبهة المصرية جوًا وبرًا ابتداء من الساعة ٩ صباح أمس... إسقاط أكثر من ١١٥ طائرة للعدو خلال هجماته الأولى... وأسر وقتل عدد من طياريه... صد ٣ هجمات إسرائيلية بالمدرعات في مناطق الكونتيلا وأبوعجيلة وخان يونس... قواتنا توجه ضربات متلاحقة للعدو وتلحق به خسائر فادحة في البر والجو».

سمع صوت عباس المحولجي، جارهم في البيت المقابل، يسأله من خلف الباب الصاج:

- قرأت الجرائد اليوم يا «أبو ممدوح»؟

- ادفع الباب واتفضل... البيت بيتك لست غريبًا.

دخل عليه وهو يلوح بصحيفة الجمهورية بيده:

- اقرأ... واشفي غليلك من أولاد الكلب

اعتدل في جلسته ووضع «الأهرام» بجانبه على الحصيرة، وأمسك «الجمهورية»، فلمعت عيناه وتهلل وجهه ونادي على ابنه الذي كان يلهو بالقرب منه، وكادت تفر الدموع من عينيه فرحًا وابتهاجًا وهو يقرأ بصوت يغالب رغبته في البكاء:

- «المعركة الفاصلة تدور الآن داخل إسرائيل... قواتنا تسلمت زمام المبادأة وتوغلت داخل إسرائيل بعد أن دمرت دباباته، وأحبطت محاولاته للهبوط بالهليوكوبتر... سلاح الجو الإسرائيلى يلقى أكبر هزيمة فوق الأرض العربية... ٨٦ طائرة أسقطها سلاحنا الجوى و ٥٠ أسقطتها سوريا و ٢٣ أسقطتها الأردن، والعراق ٧، وواحدة لبنان.. القوات السورية والأردنية

والعراقية تضرب مواقع العدو، وتتوغل داخل أراضيه على طول الجبهة... تدمير مطارات العدو وضرب مصفاة البترول في حيفا، وإشعال النيران في ٥ مستعمرات إسرائيلية... القوات الأردنية تستولى على جبل المكبر وتطارد قوات العدو في القدس المحتلة وتحتل مستعمرة زايد».

(١٣)

بعدها بثلاثة أيام، شعر ممدوح أن حالة من الحزن والانكسار، كست وجوه الناس من حوله، وفقدوا الرغبة في استئناف حياتهم الطبيعية، أو حتى تبادل التحايا أو ابتسام الجار في وجه جاره. وعلَّق بعضهم موعد زفاف ابنته أو ابنه، وكأن سرادقًا كبيرًا من الظلام والوجع، قد مدَّ ظله على القرية وعلى محيطها الصحراوي.

تجمع الناس في البيوت وعلى مقهى حمودة، حول الراديو، يبكون ويلطمون الخدود ويشقون الجيوب... وهم ينصتون لخطاب الزعيم بصوت منكس الراية معترفا بالهزيمة:

(هل معنى ذلك أننا لا نتحمل مسؤولية تبعات هذه النكسة؟ وأقول لكم بصدق - وبرغم أية عوامل قد أكون بنيت عليها موقفي في الأزمة - فإنني على استعداد لتحمل المسؤولية كلها، ولقد اتخذتُ قرارًا أريدكم جميعًا أن تساعدوني عليه: لقد قررت أن أتنحى تمامًا ونهائيًا عن أي منصب رسمي وأي دور سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير، أؤدي واجبي معها كأي مواطن آخر).

طافت الحشود في شوارع القاهرة التي تبعد عن الإسماعيلية ١٢٠ كم، ليومين متتالين، رافضة تنحية القائد، وانسالت الدموع من العيون مثل المطر الهطول، إنه المنقذ والملجأ، لِمن يتركنا بعده؟!

هكذا كُتِب على الناس «الحلول» في ذات الزعيم.

في صباح يوم ١٢ يونيو ١٩٦٧، تلقف من يد ابنه ممدوح صحيفة الأخبار بلهفة، يقلِّب صفحاتها الواحدة تلو الأخرى، توقف هنيهة أمام عمود «أنيس منصور»: «مواقف»، ثم طال وقوفه، ومضى يقرأ بصوت هامس، وغمامة الحزن تنقشع، بهدوء من على وجهه المتجهم، ثم نادى على بناته الثلاث وعلى ممدوح:

ـ اسمعوا... هذا هو الكلام! وراح يقرأ بصوتٍ عالٍ:

(أعلن جمال عبد الناصر أنه المسؤول وحده عن النكسة وأنه لذلك يجب أن يتنحى، وهذه هي قمة البطولة وقمة المأساة أيضًا! كيف للراعي أن يتخلى عن رعيته المؤمنة به؟ كيف للمؤرخ أن يلقى قلمه وهو يصحِّح تاريخ مصر والأمة العربية.

لقد عشنا بك ومعك يا جمال أيامًا سعيدة... إن أعباء النكسة تستطيع وحدك أن تحملها وأن تزنها... لقد أصدرنا قرارنا: لا. وشكرًا لله أنك قلت لنا: نعم).

غافلت شقيقته الكبرى أباها وقت القيلولة، ونزعت الصفحة التي كان يقرأ منها مقال «أنيس منصور»، وركضت بسرعة نحو غرفة الخبيز، وممدوح يتعقبها ويسألها:

ـ ماذا ستفعلين؟!

ـ تعالَ لترى!

دخلا معًا إلى أمهما وهي تجلس أمام «طبلية»، تفرد بـ«النشابة» رقائق العجين وتحشوها بالسمن السائح:

ـ أكاد أسمع صرير بطنكما من الجوع!.. حالاً أفرغ من الخبيز.

هذه آخر فطيرة مشلتت في يدي.

همست ابنتها في أذنها بكلمات. تركت ما بيدها. نهضت بعدها مسرعة تتعثر في خطواتها وهي تنادي:

ـ حاضر حاضر يا أبو ممدوح.

قبل أن تعود أمهما ألقت ابنتها ورقة الصحيفة في فتحة إحماء الفرن بالحطب وأحرقتها.

دخلت عليهما وهي تحاول إسكات شقيقها الغاضب والثائر مما رأى. تكتم صوته بوضع يدها على فمه... نزعت الأم يد ابنتها من على فم شقيقها وانخرطت في نوبة صراخ وتوبيخ.

انسلَّ ممدوح من بينهما، مهرولاً ينادي على أبيه، دفع باب غرفة نومه، يلح عليه أن يهجر فراشه ويسمع ويرى.

قام الأب مذعورًا، مرتبكًا يتخبط في أثاث الغرفة، ينادي على بناته وزوجته، أحكم غلق الباب الرئيسي والنوافذ، يسوقهم بيد مرتعشة، نحو آخر غرفة في البيت، فلا يسمع العابرون والجيران لهم صوتًا، وهو يهمهم بصوت أذله الرعب:

ـ الحيطان لها ودان ويا أولاد الكلب... سترسلوني «وراء الشمس»!

ثم انخرط في البكاء وهو يوصيهم بالصمت وكتمان ما حدث وأخذ عليهم موثقًا ألا يطلع أحد على ما حدث في البيت اليوم.

رقَّ الجميع لحال أبيهم ووعدوه بالوفاء بما أوصاهم به... إلا ابنته الكبرى التي وقفت في ركن غير بعيد، مشفقة على أبيها ومتذمرة في الوقت ذاته، مما رأت وسمعت.

كان معنى «السُّلطة» في وعي ممدوح، قبل ذلك اليوم، يشبه كائنًا خرافيًا لا يشبهنا، «ليس كمثله شيء» بيننا، مصدر للزهو والفخر والبطولة، يتحدى الخوارق، ويأتي بالأفعال ما يفوق قدرة البشر: يعبر البحر بخطوة، يخلع البيت من أساسياته بلمسة من إصبع يده الصغير، يرى موقع بيته في «كوبري القبة» بالقاهرة من جلسته متكئًا على جدار التقفيصة في الإسماعيلية. يشبه عفريت من عفاريت سيدنا سليمان، ويقطع المسافة بينهما قبل أن يرتد إليه طرفه. وهو مصدر الأمان والحماية والنصر على الأمريكان والإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين!

الآن... لأول مرة يعرف ممدوح الخوف من السلطة... والسلطة تعني الحكومة... والحكومة تعني الشرطة... والشرطة تعني الشاويش فرج في قسم شرطة الضواحي والمخبرين الذين يحصون على الناس أنفاسهم.

الحكومة باتت قوة شريرة مجهولة شمطاء تثير الفزع في نفس ممدوح كلما ذُكرت أمامه.

(١٤)

تلقى عباس الِمحولجي ذات صباح، جوابًا مثبتًا على طرفه العلوي، ما يشبه «اللوجو» مكون من أربع حروف «ICRC» فتحه: رسالة ليست طويلة، تشغل نصف الصفحة، باللغة الإنجليزية. نصحوه جيرانه أن يعرضها على «حاتم عبد الحفيظ» ابن ناظر محطة السكة الحديد. كان قد عاد لتوه من «بلاد برة»، وسمعوا أنه «يبرطم» مثلهم ويسمع النشرات في الإذاعات الأجنبية.

بيت طيني لا يفرق كثيرًا عن بيوت «نفيشة» الطينية، والتي يسكنها المحولجية الفقراء بالسكة الحديد، زاد عليها حديقة صغيرة يتدلى من سورها الخشبي عيدان شجر الجوافة والليمون وشجرة مانجو معتلة تشكو الإهمال، وأحواض زهور تتوسط نجيلة غير مشذبة... هذه الزيادة، أضافها الأب/ناظر المحطة عبد الحفيظ، إلى بيته، كـ«نيشان» أو «ريشة» على رأسه كـ«أفندي» تميزه عن الناس الشقيانة من عمال التحويلة. زادته هيبة في عيون بقية سكان القرية.

استقبلهم حاتم بودٍّ مصطنع، وطفق يخفي بابتسامة باهتة. سيماء الضيق على وجهه. جلسوا على النجيلة، وجلس هو على كنبة، تعلوها مرتبة قطنية مكسوة بملاءة حريرية.

كانت نصف الحارة وصبيانها ومن بينهم ممدوح، برفقة عباس المحولجي، ولكلٍّ في نفسه حاجةٌ يريد قضاءها، منهم

بدافع الواجب والمواساة، وبعضهم يحترق شوقًا لمعرفة فحوى الجواب «الغريب» الذي تسلمه جارهم من جهة أجنبية.

التقط حاتم الجواب، قرأ فحواه بصمت، ثم طواه، ورفع وجهه تلقاء عباس المحولجي:

ـ جواب من اللجنة الدولية للصليب الأحمر، يقول إن ابنك مفقود في سيناء ولا يعرفون ما إذا كان حيًّا أو قُتِل... وهذا رد على رسالة وصلتهم منك بشأنه في وقت سابق.

أسند عباس المحولجي جبهة رأسه إلى راحة يده، وحدق بعينين زائغتين في الأرض من تحته، وهو يتمتم:

ـ عوضنا على الله... عوضنا على الله.

نظر إليه الجميع بأسى، وراح سعيد العطشجي يصرف القلوب الحزينة بعيدًا، إلى ما يخفف عنها أساها، فنادى على حاتم:

– يا أستاذ... أنت ما شاء الله رجل متنور وتعرف لغة أولاد الكلب الأجانب... ما هي آخر أخبارنا عندهم؟

أطرق هنيهة ثم نظر إليهم في قلق، وحدق في باب البيت الموارب ثم قال:

– يقولون كلامًا يجعل الدم يغلي في العروق.

ثم سكت... وبعد فترة صمت لم تستمر طويلاً، عاد العطشجي يسأله:

– مثل ماذا؟!.. يا أستاذ حاتم!

ارتسمت على وجهه قسمات غضب غامض لا يعرف ما إذا كان جادًا أو مصطنعًا... وقال مكشرًا:

– لا داعي يا جماعة... كله كلام جارح وتهكم وتريقة.

زمَّ شفتيه وهزَّ رأسه، ثم قال
ـ لا تطاوعني نفسي أن أعيده عليكم.

استأذنوا للانصراف... وهو ينظر إليهم من مكانه، وصدى صوت الـ «بي بي سي» يصدح في رأسه برأي لم يسمعه قط في بلده ولا في أية إذاعة عربية... يتساءل المذيع وقد روعته صدمة ما حدث يوم التنحي الشهير: « كان على عبد الناصر أن يمضي في التاسع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ إلى بيته، إذ لا يُعقل أن يقود زعيم شعبه إلى هاوية الهزيمة التي غطته بالعار والنابالم، ويبقى في سُدَّة الرئاسة! لكن المصريين والجماهير العربية طالبوه بالبقاء في السلطة، مؤكدين ولاءهم لقائد أكبر هزيمة في تاريخهم الحديث».

شعر حاتم عبد الحفيظ بقلبه يعتصره الألم، ولكنه ألم يجهل مصدره، لا يدري ما إذا كان بسبب شعوره بالإهانة، أم أنه صادف هوى خفيًّا في نفسه... ولكن في النهاية مثل كل المصريين: ظل عبد الناصر يحتل في وجدانه مكانة لا تتزعزع.

(١٥)

كانت شمس الظهيرة تلهب متن الكثبان الرملية بقسوة، وتلقي بحممها على بيوت مرهقة تستظل ببعضها، لا نسمة تلثم المكان بنعومة، إلا بين أعمدة «التقفيصة» التي تحمل صهريج المياه الكبير.

غادر الأستاذ حاتم عبد الحفيظ حديقة بيته الصغيرة، بعد أن كسر عزيمتها فظاظة الحر وتبجُحه، تسلَّق سور قاعدة التقفيصة الصغير، مدَّد جسده تحت ظلها الحاني، يحدق في سقفها المحمول على قضبان حديدية، تشبه شريط السكة الحديد الملاصق... لا يغادره طنين تقرير الـ «بي بي سي»... يحاول دفع جلسة استجواب داخله، تلح عليه بالأسئلة التي يخشى أن يجد لها إجابة، تزعزع ثقته في عفوية ما حدث يوم ٩ يوينو في القاهرة.

ولكن باغته مشهد، رآه أيام دراسته في الاتحاد السوفيتي، يوم خروجه من سوق «كيتاي جورود» المقابل لـ«الكرملين» في موسكو، ليتابع عن قرب العرض العسكري الخامس والثلاثين في «الريد اسكوير»، وستالين يخطب في الجماهير ويسألهم: «ماذا كان بإمكانكم أن تفعلوا من دوني؟».

إذ ذاك... نهض مبتهجًا وكأنه وجد ضالته التي فقدها في الظهير الصحراوي للإسماعيلية، وكاد يسمع أهازيج مرحة في نفسه:

– نعم... صدق ستالين... ماذا كان بإمكاننا أن نفعل دون عبد الناصر؟!... إنه ليس زعيمًا وحسب، وإنما هو «الأب»... مَن في العالم يختار أباه؟!.. إنه قدر لا خيار لنا فيه!

لكن سرعان ما اعتدل في جلسته، وقد استظلته غمامة قلق، وشعر بأنه يتكئ على إجابة سندها هش... فالإجابة قد تكون مضللة، ولكن استيقن أن بقيتها واكتمالها لا زالت عند ستالين.

ضج ذهنه بفوضى الصور المتداخلة، لا يدري ما إذا كان ستالين أم عبد الناصر، الذي رآه يخطب في الجماهير من أمام الكرملين... فقد إحساسه بالزمان والمكان، استغرق في الشرود، وكأنه صعد فوق خزان التقفيصة، ينظر منها إلى المشاهد المتداخلة تحتها، لا يكاد يشعر بالفرق بين يوم ٩ يونيو ١٩٦٧ في القاهرة، وبين ما رآه بنفسه يوم تدافع ٣ مليون روسي لوداع ستالين في موسكو عام ١٩٥٣، قُتِل منهم الآلاف دهسًا تحت أقدام المُشيعيين.

أفاق من شروده مرهقًا، لم يظفر بنتيجة، ولكن ظل سحر عبد الناصر، لُغزًا وقيدًا على أية محاولة منه، للتفكير خارج صندوق البروباجندا.

(١٦)

كان ممدوح يميل لمصداقية، كل من يمثل بالنسبة له نموذجًا للبطولة، حتى المسحراتي في رمضان، كان يعتقد أنه ليس من جنس البشر... يلح على إحدى شقيقاته أن تفتح باب البيت بعد منتصف الليل، ليراه وهو يمشي على ضوء الكلوب. وفي الصباح الباكر، يتقصى إثر نعله، على رمل الحارة، وينتشي سعادة وهو يتمتم:

ـ هنا مشى عم شعبان المسحراتي.

يجلس قبالته صباح يوم العيد، يتأمله بالساعات، ويساءل نفسه:

ـ أهذا هو الرجل الذي لا يخشى هدأة العتمة، وسكوت الأزقة والحواري المظلمة، وبيوت تشبه في الليل شواهد القبور المخيفة؟!

غير أن نظرته له تغيرت، بعدما شاهده وهو يتلقى «الصدقة» ويمد يده للعابرين، يلتقط منهم أطباق الكحك والبسكويت، ثم يفرغها في قُفَّة أو بقجة ضخمة، ويغادر بعد الظهر وحيدًا، دون أن يودعه أحد.

كان يحب أيضًا عبد الناصر، حتى رأى قرة عينه أباه، الذي عوضه بحنانه، غياب أمه المشغولة عنه بأشيائها وأحلامها التافهة، وقسوة شقيقاته البنات عليه... وهو يهرول مذعورًا، يتعثر في خطواته المرتعشة، يسقط وينهض، يتلفت هنا

وهناك بعصبية، يتوسل إلى بناته، ألا يُذاع سِرّ ما صدر من ابنته الكبرى في غرفة فرن الخبيز، في هذه اللحظة، التي فهم فيها ممدوح مغزى ما حدث، لم ينزع صورة الزعيم، من على جدران وجدانه الأبيض... بقيت! ولكن مشطورة بين الحب والكراهية: يغضب إذا شتمه أحد... ويغضب أيضًا إذا دافع عنه أحد! لم يعد يحبه... كما لم تطاوعه نفسه على أن يكرهه!

كان ممدوح ينظر بإعجاب شديد، إلى الضباط والجنود، فوق الدبابات، وهم يعبرون «نفيشة» إلى سيناء، يعدوننا بقرع أجراس التحرير في تل أبيب... إلى أن رآهم مكومين تحت التقفيصة، يداوون جراحهم ويرتقون ستراتهم الممزقة، ويَخْصِفُون أحذيتهم التي تحتفظ بتفاصيل الانسحاب من سيناء، تزدريهم عيون العابرين الغاضبة.

تعلَّق ممدوح بالشاب حاتم عبد الحفيظ، وحيد أبيه، الذي كان قد عاد منذ شهر، من الاتحاد السوفيتي، حاملاً شهادة في الكيمياء، من جامعة «سانت بطرسبورغ»، ذلك بعد أن شارك ممدوح وأقرانه، في لعب مباريات متكررة بالكرة الشراب أمام التقفيصة.

بعد إحدى المرات، تحلَّقوا حوله، ومضى يحكي لهم عن «موسكو»، التي تقع على نهر «موسكفا»... استأذن ريثما يأتيهم بألبوم صور- هذا أفضل - ثم عاد بعد وقت قصير.

عرض عليهم صورًا من داخل متحف «بوشكين» وكاتدرائية «القديس باسيل» فائقة الروعة والجمال، وقصر «تساريتسينو»، وصورًا له وهو في حديقة «غوركي» وأمام

قبر «لينين»، وصورًا وهو يسبح مع الدلافين في متحف «فدنخ بارك»، وأخرى له من أمام «دير نوفو ديفيتشي».

ثَملَ الصِّبيةُ ولمعتْ عيونهم وكأن حاتم عبد الحفيظ، جاءهم من العالم الآخر، عالم لا يعرفونه ولا يعرفهم... التفتوا حينها إلى بيوتهم التي تشب متعبة بلا أطراف، وبخجل من فوق الكثبان المتجهمة، طين مشدود بالقش وأسقف من الصاج صدئ، تستر أجسادًا معتلة ورؤوسًا منكسة من الذل وعيونًا مكسورة من الخوف، لحيطانها أُذنٌ موصولةٌ بقسم شرطة الضواحي. لا يسمع عنهم من في موسكو، ولا يكترث لآلامهم مَنْ في القاهرة.

حملهم الفضول على أن يسألوا حاتم عبد الحفيظ عن معنى كلمة «صباح الخير بالروسي»... يضحك ضحكة مجلجلة، ثم ينطقها لهم بالإنجليزية:

- dobroye utro

يتوسلون إليه، أن يعيدها عليهم مرات ومرات، عساهم يحسنون نطقها...

- حسنًا. زدنا يا أستاذ... ماذا تعني كلمة مساء الخير بالروسي؟

يبتسم لهم بود ثم ينطقها بالإنجليزية:

- dobryy vecher

قطع لحظات اللهو البريء، سقوط أربع دانات مدفع هاون إسرائيلية، على مدرسة ابتدائية، مقابلة للتقفيصة، يفصلهما شريط سكة حديد يربط مدينتي السويس والإسماعلية، ضلَّت طريقها إلى قرية نفيشة.

فرَّوا مذعورين، لا يدرون أين تحملهم أقدامهم المرتعشة، أنفاسهم لاهثة وقلوبهم تدق مثل الطبول... يركضون مثل أرانب تهرب من ثعلب جائع... وفجأة وجد ممدوح واثنان من أقرانه، أنفسهم لصق خلوة الشيخ عبيد... حثهم بإلحاح على اللجوء إليه:

ـ إنه رجل مبارك... لقد رآه أبي عند شط الترعة، وقد التقى له الشطآن، فمدَّ رجله فكان على الشاطئ الآخر.

نظرا إليه نظرة غامضة ولم ينبسا بكلمة، ولكنهما أنصتا إليه باهتمام، وعندما أحسَّ أنه قد راقت لهما الحكاية، واصل ما يغريهما على طلب الأُنس والحماية في حضرة مولانا المُبارك:

ـ سمعتُ أبي يقول إنه شاهده يمتطي فرسًا أبيض ويعتمّ بعمامة خضراء، يصول ويجول وسط مظاهرة ضد الإنجليز في ميدان نازلي (ميدان عرابي حاليً ا) بالإسماعيلية، كلما أشار بعصاه إلى أي شيء تندلع فيه النار... ثم التفتَ تجاه مبني «النافي» السوق العملاق الخاص بالإنجليز، وأشار عليه بعصاه المعكوفة، وهتف بأعلى صوته «مدد يا شيخ المشايخ... مدد يا مولاي الشيخ حيدر... المدد. الغوث. الفيض. السر... التمس بركة مقامك نورًا ونارًا وسرًا وقوة»... فاحترق المبني وانهار ونُهب منه ما خفَّ وزنه وغلا ثمنه... وعندما عاد أبي وجده في خلوته جالسًا فوق حصيره يكركر الجوزة.

وصلوا إلى الخلوة المباركة، جلسوا القرفصاء تحت شِباكها الخشبي، سمعوا صوت امرأة، تتبادل بخلاعة الشتائم البذيئة مع الشيخ، ويصدر من حنجرته أصواتًا نابية، ثم يعود ويطلبها بتودد إلى فراشه ليتفحش بها. تهدده إذا لم

يتركها ستصرخ وتجعل «من لا يشتري يتفرج على مولاهم النصاب»... ثم اندفعت تهرول بخُطى سريعة خارج الخلوة، تحاول سترجسدها نصف العاري بعباءتها اللف، وهي تتمتم:
ـ يا راجل يا وسخ، لا عندك دين ولا دم! الناس تتطاير رؤوسها تحت القصف وأنت تلهث بين فخذي لتلعق عسيلتي حراما؟!

همس أحدهم في أذن ممدوح:
ـ أتعرف من هذه؟!

– لا.. أتعرفها أنت؟

– نعم... إنها شفيقة الرقاصة!

شهق ممدوح، وبرقت عيناه، وكاد يغشى عليه... ثم قال:
– يا نهار أبوك أسود يا شيخ عبيد... الست شفشق الغازية؟!

– قلت لك من قبل، إنه رجل «ابن قحبة»... رأيته ليلة خلف «التقفيصة» خالعًا عمامته الخضرا، دافسًا رأسه «القرعة» بين نهدي فوزية الهبلة، يلهث ويشهق، ولعابه ينزلق على صدرها أبيض ثقيلاً، مثل مَني الحمار. ولم يتركها إلا بعد أن رفصته بركبتها في خصيته.

توقف قصف مدينة الإسماعيلية، ولم يبق منه إلا سُحب دخان متناثرة، يراها سكان «نفيشة» من بعيد.

عاد ممدوح رفقة صديقيه، إلى «التقفيصة» حزينًا مكسور الخاطر، شاردًا منصتًا لوشوشة نفسه المعتمة:
– من سيحمي «نفيشة» بعد الشيخ عبيد المشغول بالجري وراء النسوان؟!

تحولت الوشوشة إلى شوشرة على مصدر حزنه الحقيقي،

تآكلت ثقته في كل من كان يتعلق إعجابًا بهم، تصدعت التماثيل التي أقامها لهم في وعيه المتيم بحُبهم، وتهشمت صورهم التي علَّقها على جدران قلبه المُحب بلا مقابل، لم يتركوا له إلا ما يقمع اضطراب نفسه بالبحث عن: الخلاء ومغافلة الناس وخدر إمتاع النفس بعيدًا عن العيون.

(١٧)

جاء حاتم عبد الحفيظ، إلى التقفيصة، متأبطًا كتابًا، وفي يده الأخرى «طبق ترمس»، نادى على ممدوح وأقرانه:

– تعالوا... ترمس بالشطة

أقبلوا عليه إلا ممدوح، ظلَّ في مكانه شاردًا حزينًا... سألهم:

– ماذا به؟!

قصّوا عليه ما حدث عند خلوة الشيخ عبيد... أطرق برهة ثم انخرط في الضحك ونادى:

– يا ممدوح لن يحمينا أمثال هؤلاء حتى لو كانوا صالحين.

صادف كلام حاتم عبد الحفيظ، فضولاً في نفس ممدوح... فتخلى عن عزلته، وانضم إليهم، متوقعًا أن يسمع من حاتم، ما يشفي غليله ويُجلي همه وحزنه...

–المسيحيون مثل المسلمين... نحن لدينا مساجد، وهم لديهم كنائس... أكبر وأهم مسجد عندنا في مصر هو الجامع الأزهر الموجود قبالة مسجد سيدنا الحسين في القاهرة، وأكبر كنيسة للمسيحيين في العالم اسمها «الفاتيكان» في دولة إيطاليا... ومثل ما عندنا شيخ الأزهر، عندهم كذلك بابا الفاتيكان.

جلس ممدوح وأقرانه منصتين باهتمام... ثم سأله أحدهم:

– لِمَ سُمِّيت بالفاتيكان؟

– لأنها بنيت فوق هضبة اسمها هكذا، وهي هضبة موجودة في ضواحي «روما» عاصمة إيطاليا، مثل القاهرة التي هي عاصمة مصر كلها.

ثم ابتسم حاتم بودٍّ وسكت بعض الوقت وهو يتأمل وجوههم، منتظرًا استفزاز ملكة البحث والتقصي الكسولة عندهم... وقد حصل ما كان يأمله:

– لِمَ بنيت على هذه الهضبة «الفاتيكان» بالذات وليس على غيرها في أي مكان آخر؟!

– لأنه يُعتقد أن القديس بطرس صُلب على هذه الهضبة ودُفن في قبر صغير أسفلها، ولذا بُنيت الكنيسة فوق قبره، كما يعتقد المسيحيون.

– من هو القديس بطرس؟

– يُقال إنه من تلاميذ سيدنا المسيح عليه السلام، لفَّ العالم مبشِّرًا بالمسيحية، واستقر به المقام في «روما»، وقتله الحاكم في ذلك الوقت، كان اسمه الامبراطور «نيرون».

سأله ممدوح متضايقًا:

– ما علاقة الفاتيكان، بموضوع الشيخ عبيد؟!

– وأنا أدرس الكيمياء في جامعة «سانت بطرسبورغ» في موسكو، قرأت حينها في الصحف السوفيتية أن رئيس الوزراء البريطاني، أثناء الحرب العالمية الثانية، وكان اسمه «ونستون تشرشل»، أبلغ الزعيمَ السوفياتي «جوزيف ستالين» (كان مثل الزعيم عبد الناصر عندنا في مصر)، أن الفاتيكان قد قرّر مواجهة النازي «هتلر»، فأجابه ستالين ساخرًا: «كم دبّابة عند بابا الفاتيكان؟».

سكت بعدها حاتم، وخيَّم الصمت على المكان... ثم عاجله أحدهم وهو يكتم ضحكة خبيثة:

– لكن بجوزة الشيخ عبيد عندنا في «نفيشة» سلاحًا سريًّا، أقوى من القاهر والظافر، قفشناه وهو يحاول تجريبه بين فخذي شفيقة!

ضج المكان بالضحك، وضحك ممدوح وانفرجت أساريره... وبسرعة تضخم إحساس خفي بداخله، بأن نجاته من اضطرابات نفسه، ربما تكون باستقرار قاربه التائه، على يابسة ابن ناظر المحطة.

(١٨)

علم ممدوح أن جارهم عباس المحولجي، سيغادر بعد ظهر الغد إلى الإسماعيلية، لمرافقة شقيقه المريض، لفحصه عند طبيب عيون يوغسلافي متعاقد مع هيئة قناة السويس.

قبيل الظهر ترقَّب ممدوح وأصدقاؤه المحولجي عند التقفيصة، وما أن لمحوه من بعيد، حتى همَّوا بلقائه. توسلوا إليه أن يكونوا رفقته، عساهم يقضوا وقتًا في قهوة «برعي» بشارع «الجعيص»، يستمتعون فيه بمشاهدة حفلات السمسمية، التي يقيمها أهالي منشية الشهداء كل يوم.

على بعد خطوات من باب المقهى، دوت صفارات الإنذار، وأُمطرت المنشية بدانات الهاون، احتمى ممدوح وأصدقاؤه خلف ساتر من شكاير الرمل، التفت مذعورًا يبحث عن عباس المحولجي وينادي عليه، وفي اللحظة التي لمحه فيها، كانت شظية قد جزت عنقه... صرخ الصبية بهوس، ودسَّوا رؤوسهم في الساتر الرملي، فقد روعهم هيئة المحولجي وهو يمشي في الشارع بلا رأس.

توقف القصف، بعد أن أحال دخان الحرائق، نهار الإسماعيلية إلى ليل حالك السواد... تحسَّس ممدوح وأصدقاؤه الأزقة والحواري إلى أن سلكوا شارع محمد علي، ومنه وبشق الأنفس إلى «نفيشة»... دخلوها وقلوبهم ترفرف في جنوبهم كالذبائح، منكسة الراية، مكسورة العيون، متهكمة على الذين مرّوا

فوق ذات الأسفلت، وهم يلوحون بشارات النصر، يعدونهم بدخول تل أبيب.

الوحيد الذي ظل مرابطًا على ثغور الثقة في «الجبل» الذي لن يهزه ريح، جزت شظية إسرائيلية رأسه وهو في حضن الجبل... استشهد المحولجي... وهو مصرٌ على أنه أسند ظهره إلى «جبل»، وليس إلى بالون منفوخ بالكلام والصوت العالي، تصدع جلده المشدود مع أول شكة دبوس.

في العتمة، ومن بعيد، شاهدوا تجمعًا كبيرًا يتوسطه حاتم عبد الحفيظ، عند «التقفيصة»، فهموا أنهم ينتظرون وصول جثمان الشهيد عباس المحولجي.

دلفوا بين الجالسين، احتدّ النقاش وعلت الأصوات، وتطاير شرر الغضب، وانتفخ صدر الليل بأنفاس اليأس، عندما علموا بقرار التهجير القسري لمُدن القناة الثلاث. وانزلقت على خدود البعض دمعات ساخنة، وتكدست تساؤلات خجلة على عتبات العيون الصامتة.

بذكائه فكك حاتم عبد الحفيظ شيفرة التساؤلات التي يحبسها الخوف عن المجاهرة بمخاوفها الحقيقية:

ـ ممكن تسمعوني؟!

وانتظر قليلاً ريثما ينصت له الجالسون... ثم استأنف كلامه:

– الجيوش جزء من الدول، وليست هي الدول... وهي جزء من الشعوب، وليست كل الشعوب... وإذا هُزم الجيش فلا يعني ذلك سقوط الدولة... الدولة أكبر من الجيش... والشعب أبقى وأكبر من الاثنين.

شوَّح الحاج محمد الليثي البقال بيده متذمرًا:
– يا عم قُل كلامًا نفهمه... بلاش فلسفة.

– ليست فلسفة يا حاج محمد... سمعتك وأنت على المنبر يوم الجمعة، تعظ الناس وتذكرهم بالغزو المغولي لبغداد أيام العباسيين.

ردَّ عليه الحاج محمد الليثي متهكمًا:
– إيش جاب طوخ لمليج؟!

– طبعًا بينهما علاقة! هُزِم جيش الخليفة العباسي في ذلك الوقت «المستعصم بالله» هزيمة مُذلة... وأعدمَ هولاكو الخليفةَ، ودُمرت بغداد بالكامل، وانهارت الخلافة العباسية كنظام سياسي... ولكن هل سقطت الأمة؟!

أطرق حاتم هنيهة ينتظر منهم جوابًا... وتعلقت عيون الجالسين إليه باهتمام. أخذ نفسًا عميقًا ثم قال:
– لم تسقط... بل العكس انتصرت الأمة بصبرها.

قاطعه أحد الحاضرين مستأذنًا للكلام:
– يا أستاذ... وعرفت أيضًا إن الغزاة المغول اعتنقوا الإسلام.

– أحسنت... هذا صحيح.

لمح حاتم، جرذان الامتعاض تتقافز، على صفحة وجه الحاج محمد الليثي. فابتسم بود وانتقل إلى موضوع آخر:
– وأنا في موسكو روى لي زملائي الطلبة الروس عن مدينة اسمها « لينينغراد». تغيَّر اسمها الآن إلى « بطرسبورغ»... مدينة تشبه الإسماعيلية. لكن أكبر منها، كان يسكنها حوالي مليون ونصف مليون شخص، بينهم ٤٠٠ ألف طفل. في الحرب

العالمية الثانية انهار الجيش الروسي أمام الجيش الألماني، بل إن هتلر وصل بقواته إلى حدود العاصمة موسكو. المهم، حاصر الجيش الألماني المدينة ٩٠٠ يوم، ومات من سكانها ٦٠٠ ألف شخص، منهم من قُتِل بالقصف، ومنهم من مات من الجوع والبرد... اندفع إليها السكان من ضواحيها، التي تشبه نفيشة وأبو صوير والقصاصين والقنطرة وأبو خليفة عندنا هنا في الإسماعيلية. وفي الآخر انتصرت المدينة وهُزم الجيش الألماني.

سأله الحاج محمد الليثي هازئًا:

– مدينة محاصرة من أقوى جيش في العالم ٩٠٠ يوم... وتقول لنا «انتصرت»!.. يا عم احترم عقولنا. أنا صحيح بقال، لكن تعلمت شوية في الأزهر.

– عندك حق يا حاج محمد... نسيت أقول لكم إن القوات الألمانية حاصرت لينينغراد من اليابسة، بقيت بحيرة اسمها «لادوغا» الطريق المائي والوحيد الذي يربط المدينة بالبلاد، خاصة في فصل الشتاء حينما يتجمد سطح البحيرة. عبر هذا الممر المائي الجليدي الوحيد الذي حمل حينها اسم «طريق الحياة» كان الجنود السوفيت والأهالي ينقلون الإمدادات من الأغذية والوقود للمحاصرين، ويقومون بإجلاء الأطفال والنساء والمرضى والجرحى من المدينة، متحدين القصف الألماني المتواصل وبرودة الطقس، وكان شتاء عامي ١٩٤١ و١٩٤٢ من أصعب مراحل الحصار.

الغريب يا جماعة إن هذه كانت نقطة التحول الرئيسية في الحرب العالمية الثانية، ومنها كانت بداية أفول الفاشية الهتلرية.

انتصب ممدوح من بينهم يتساءل مذعورًا:

- يا نهار أسود!! يعني ممكن إسرائيل تدخل الإسماعيلية وتصل إلى مصر «القاهرة»؟!

التفت الجميع إلى حاتم يترقبون رده مفزوعين...

ضحك بهدوء وسكينة وقال:

- لا داعي للقلق... لن يدخل الإسرائيليون الإسماعيلية ولا أية مدينة مصرية أخرى. ليس خوفًا من الجيش، ولكن خوفًا منكم أنتم سكان المدن والقرى.

خيَّم الصمت على المكان، فلا صوت يعلو فوق صوت حاتم، الذي التفت يبحث عن الحاج محمد الليثي، فقالوا: انصرف بدون أن يشعر به أحد، واختفى من المشهد.

(١٩)

اختطفت الطائرات ومدافع الهاون الإسرائيلية، مدينة الإسماعيلية، وسدَّت رائحة البارود والجُثث، رئة المدينة.

يبدأ القصف العشوائي يوميًا، من بعد الظهر إلى وقت متأخر من الليل. يتدافع الناس هائمين على وجوههم في الشوارع. تُقطع رؤوس بعضهم بالشظايا المتطايرة في كل اتجاه. يقطعون مشيًا على الأقدام، الخلاء الصحراوي المحاذي لمعسكر الجلاء، وجهتهم صوب محطة السكة الحديد في «نفيشة»: نساء يركضن حافيات، حَمَلَهُن الذعر على مغادرة بيوتهن قبل أن يرتدين نعالهن، ولم يترك لهن القصف الوحشي فرصة ستر أجسادهن، فخرجن هائمات بقمصان النوم الشفيفة، يحملن الرضع من الأطفال، ويسحبن صبية أعياهم المشي، على وجوههم من خلفهن، فوق كثبان الرمل الساخن.

لم يتذكر ممدوح الذي كان يعتلي جدران التقفيصة هو وأصدقاؤه، يراقبون القصف وسحائب الدخان من بعيد، ما إذا كان بينهن الرجال... كانوا قد تخلفوا لحمل ما خفَّ من متاع وأثاث، واللحاق بزوجاتهم وأولادهم، في محطة نفيشة، والهروب من الموت والقصف اليومي، بالهجرة القسرية إلى محافظات الدلتا والصعيد.

(٢٠)

نقل ممدوح وشقيقاته وأبواه ما استطاعوا من متاع. في الحارة ترتطم الأجساد ذهابًا وإيابًا. لا وقت، الناس تتخطف من حولهم، تتعثر أقدامهم من تحتهم في الأرض المحفورة مقابر.

حملوا الأحلام والأكفان. أسعدهم حظًا لحق بسبنسة قطار الزقازيق ومن تذيلوا قافلة الراحلين، حُشروا في عربات المواشي.

تسلقت عيونهم الدامعة الشبابيك المسيجة بقضبان الحديد الصدئ. يودعون بيوتهم وذكرياتهم وقبور أحبائهم. الأم والأب مضغا وعود الحواة، فبدت لهما سوآتهما، وطفقا يخصفان على لحوم أولادهما العارية، بما حملوه من أسمال.

يفتحون راديو ترانستور صغير، حمله أبو ممدوح معه، يأتيهم صوت فيروز «أجراس العودة فلتقرع».

أصدر أحد المهاجرين صوتًا نابيًا من حنجرته وردَّ مُتهكمًا:
ـ ولكن من أين العودة يا فيروز؟... خازوق دق ولن يُقلع.

في محطة الزقازيق فاصلوا العربجي طويلاً، ليحملهم بحنطوره إلى القرية، حاولوا استمالته، الرجل الفظ لم يرق قلبه لحالهم:
– خمسة وعشرون قرشًا يا بلاش.

تركوه. اغتاظ فض غشاء سرهم. صرف عينيه تلقاء عسكري الدورية الرابض وحيدًا على ناصية الشارع. علا صوته:
ـ ابقوا خليه ينفعكم!

دخلوا القرية ليلاً، استأنسوا بها رغم العتمة، حملوا مثلها بين متاعهم. لمبة الجاز الوحيدة ادخروها لتدميس قِدرة الفول. خُيروا: بون الجاز والنور؟ أم كسرة خبز مغموسة بالمشي داخل الحيطان؟

نهار القرية قسوة وليلها عتمة، تُغلق الأبواب بعد المغرب على الأنّات الحبيسة ووجع أطفال، عادوا لتوهم من جمع «اللُّطَع» في حقول القطن البعيدة، تقوست ظهورهم كالمناجل، وخطّت عصا الخولي عليها حُفرًا وأخاديد، ترتع البلهارسيا في أكبادهم، وتجري في عروقهم مجرى الدم. صبية يلهون بأكفانهم، ولا يدرون أنهم يختصرون المسافات إلى المقابر.

هكذا... وجد ممدوح نفسه في حاضنة ريفية مختلفة عن مرتع صباه الصحراوي «نفيشة»، قاسمهم مرارة العيش: الفقر والمرض، والانحناء والإذلال تحت عصا الخولي، وشُرب مياه الترع، وإيواء البلهارسيا في شرايين الأطفال وأكبادهم... ولكن لم ينتهوا يومًا عن منادته بتهكم واستعلاء:

- يا مهاجر!

يخفيها ممدوح في نفسه ولم يبدها لهم. يكتفي بابتسامة باهتة... كانت عصا الخولي تعالجها أمه ليلاً بالمسح على ظهره بزيت بذرة القطن الدافئ، ولكنها تعجز عن إسكات صرخات رغبته في الثأر من الخولي يوما بعد يوم... ولا تسمع خشخشة نفسه الغاضبة، من إذلاله اليومي بالاستعلاء عليه وإحساسه بالدونية كلما نودي عليه «يا مهاجر».

اعتقدَ أن اللكنة الحضرية، التي لم يتعلم غيرها في نفيشة، تعزز

من إحساسه بالغربة والتهميش... لم يألو جهدًا في المران على النطق باللكنة الريفية. فشل. وكلما غامر بها، سلقوه أقرانه الريفيون بألسنة حداد لا تخلو من التهكم والسخرية، واتخاذه مادة لانتزاع الضحكات والقفشات التي تنال من إنسانيته.

في أول يوم دراسة، طرح المدرس سؤالاً، ثم اتبعه بآخر:

ـ من منكم يجب عليه؟

انتفض التلاميذ وعلت أصواتهم وتداخلت وشوشرت على بعضها وهم يصيحون: أنا أنا يا أفندي! إلا ممدوح وحده الذي صاح: أنا يا أستاذ.!

عندها ضج الفصل بالضحك والقهقهة والتهكم على كلمة «أستاذ»... وترامت إليه همهمات بعضهم الساخرة.

فترحماسه وأقعده الخجل على طاولته، منكس الرأس، ولم ينبس بكلمة. ناداه المعلم:

– تعالى يا ولد... من أين أنت؟!

جاءته الإجابة في صوت جماعي واحد:

– مِن المهاجرين يا أفندي!

وقف ممدوح مطأطأ الهامة بين يدي المعلم الغاضب:

– مهاجرون؟!

– نعم.

– من أين؟!

– الإسماعيلية.

ثم قال له بلهجة خشنة:

- أنا هنا يا حبيبي «أفندي»... إنت شايفني لابس «جُبة وقفطان»؟!.. أستاذ «دي» أبقى نادي بها على «الفقي» اللي بيقرا على ترابكم (مقابركم) في البلد!

ثم أمره شاخطًا بالانصراف والعودة إلى مقعده.

راقب ممدوح الدلع والدلال الذي يحظى بهما نجل ناظر المدرسة، يجلس في مقعد بالصف الأول، في مواجهة «السبورة»، يتعامل معه المعلمون باحترام وحنان شديدين وكأنه «ممثل» والده وعيونه في مراقبة أدائهم، فيما أُرغم ممدوح على الجلوس في مقعد لصق الجدار بآخر صف. فهو «مهاجر» والعين لا تعلو على أبناء القرية الأصليين.

في الفسحة شاهد ممدوح تلاميذ، يأكلون شطائر الجبن الرومي، والبيض المسلوق، وما لذ وطاب من فواكه... وآخرون يتسلقون جدار المدرسة لالتقاط شطائر الفول والطعمية الملوثين، والدُّوم الجاف الخشن والعسلية المعجونة بريق «لعاب» الباعة، الذين ينتظرونهم قبيل دق الجرس، على الجهة الأخرى من السور.

وبعضهم - ومن بينهم ممدوح - يتسللون إلى بيوتهم، عساهم يجدون فتات ما بقي من طبيخ «بايت» يلتهمونه على عجل، ثم يقفلون عائدين لاستكمال يومهم الدراسي.

شعر ممدوح في داخله، بما يشبه القمع الطبقي، من خلال نوعية «كسرة الخبز» التي في يده ومقارنتها بما في يد أقرانه الآخرين، كان مجرد إحساس غامض لم يفهمه، ولكنه شعر بقسوته وهو يجلد كرامته.

كانت ميكنة الترجمة النشطة في ذهنه المتوقد، تشق في وعيه المتوجس والمتوثب في آن، المعنى البعيد لما في يد التلاميذ المترفين، كانت قوة مجهولة تضيء له المعني الحقيقي: لم يكن طعامًا محضًا، ولكنه كان في رمزيته، إشارة إلى التعالي والتميز، عززتها نظراتهم إليه وإلى غيره من تعساء البلد... نظرات دالة على ذلك، وهم يقضمون طعامهم الشهي اللين.

مشهد يومي، يلقي في روع ممدوح، كُتلاً خرسانية، من الإحساس بالدونية،... ربما يشاطره هذا الإحساس أبناء الفقراء من أهل القرية... ولكن إحساسه هو كان مختلفًا ومضاعفًا: التعالي الطبقي «الفقر» والاستعلاء الجهوي «مهاجر»... الغريب الذي لا مأوى له...

لم تتغير تلك النظرة الأخيرة إليه، رغم أنه يقيم وعائلته في بيت جده الكبير.

(٢١)

– لماذا لا نهدّ الدار... ويُبنى من جديد بالطوب الأحمر والأسمنت؟!

تساءلت أم ممدوح وهي تجلس بين بناتها وزوجها وسط الدار متحلقين حول موقد الكوالح «الشالية» للتدفئة، في ليلة شاتية.

اشرأبت أعناق البنات فرحًا، ونهضن إلى أمهن وهن يصحن مثل الأطفال حولها:

– ليتك تفعلينها يا أماه!.. أسيأتي يوم نصير فيه مثل بنات البندر؟!

ابتسمت لهن ثم نظرت بثقة شاردة إلى شيء بعيد وقالت بصوت خافت:

– ولِمَ لا؟!

لم يمسك زوجها نفسه من الضحك، وكأنه سمع نكتة، وقال ساخرًا وهو يسعل بشدة:

– احلمي براحتك يا أم ممدوح!

– عيد الأضحى بدأ بحلم... وأنت حافظ كتاب الله وعارف!

– صحيح!.. بس ده كان «وحيًّا» وليس أضغاث أحلام.

– من أين يأتي الحلم؟

ـ من الشيطان

– والرؤية؟!

– من الله!

– حسنًا... رأيت فيما يرى النائم أني هديت البيت وأقمت مكانه بيتا آخر بالطوب الأحمر والأسمنت. وأنا من نسل النبي... ورؤيتي حق من الله!

ـ عليه الصلاة السلام... بس دي لا علاقة لها بصدق الرؤية.

– كيف؟!

– النبي قال: «أنا جد كل تقي ولو كان عبدًا حبشيًا... وبريء من كل شقي ولو كان شريفًا قرشيًا!

اشتاطت غضبًا، ونهضت من مكانها وهي تعاتبه بلهجة أقرب إلى التوبيخ:

– كلامك جارح يا أبو ممدوح... أتراني شيطانة؟!.. عيب عليك والله لقد عاشرتك العمر كله بما يرضي الله ورسوله.

قام إليها مبتسمًا بود. لثم جبينها، وتلطف معها إلى أن هدأت ثورتها وعادت إلى حيث كانت تجلس بجواره:

– يا أم ممدوح، علام الغضب والخصام؟! على شيء لم يحدث؟! ولن يحدث!

– أرسلْ في طلب المعلم مرسي البنَّاء... ليس بعيدًا من البيت.

– أنتِ جادة ـ إذن ـ فيما قلتِ؟!

ـ نعم. اسمع الكلام ولن تخسر شيئًا.

تفقد مرسي البناء الدار، ينفث دخان سيجارة ورق البفرة، لا يدع بين سيجارة وأخرى، ما يمنح رئته المرهقة فرصة الراحة بهواء نقي. يتأمل الأسقف والجدران والأرضيات، صامتًا، لا

ينبس بكلمة. يتعقبه أهل البيت خطوة بخطوة، يزداد قلقهم كلما طال صمته، ينتظرون بلهفة رأيه، كل هنيهة تتعجله أم ممدوح:

– قلْ شيئًا يا معلم مرسي... استبد بنا القلق!

يرمقها بنظرة شاردة كأنه يلقي بعينيه إلى خلاء بعيد، ثم يستأنف إحصاء «العروق» حاملة الأسقف، والشبابيك والأبواب العملاقة، وقياس الأرضيات المغطاة بألواح الخشب الذي ظل محتفظًا بجودته رغم ما مضى من عمر طويل مهجورًا يشكو وحشة الصمت وانزواء الذكريات في أركانه المظلمة.

ألقى المعلم مرسي سيجارته. دهسها تحت بلغته. فرك يديه. همس في أذن أبو ممدوح:

– الدار فيها كنز!

ترامت الكلمة إلى أذن أم ممدوح فشهقت ولمع وجهها مثل القمر ليلة اكتماله، علا صوتها فوق همهمات استغراب أولادها. قائلة بأنفاس متقطعة:

– أكيد. أمي الله يرحمها تركت لنا «خبيئة» تحت الخشب!

أطرق المعلم مرسي قليلاً ثم انفجر ضاحكًا:

– لا... أمك تركت لك الخشب.

– سامحك الله. أتهزأ بي يا معلم؟!

– أنا لا أهزأ، أنا جاد يا أم ممدوح... اتركوا لي الخشب واستلموا مني البيت بمفتاحه.

قاطعهما أبو ممدوح متجهمًا قلقًا:

ـحسنًا يا معلم، أسبوع ويأتيك الرد.

استولى الصمت على الجميع. لكن صخب وضجيج التفكير، وصفير التردد، يعصف بالعقول مثل عاصفة ترابية، تقتلع في طريقها شجر التوت المرهف، وشجر الجميز العجوز.

مضى عام، نزلت خلاله العائلة، في بيت بالأُجرة، لصق دار خولي «الدودة» مسعود، له صبايا يفلق جمالهن الحجر، تودد إليهن ممدوح، الصبي المهاجر الوسيم المختلف في لكنته عن أهل الريف الفظة. يروق للبنات الريفيات لكنة أهل المدينة، يعتقدن أنهم أكثر رقة وقدرة على تدفئة مشاعرهن الباردة، المخبأة تحت عباءة الخجل الكاذب.

فوق السطوح المتلاصقة، تصيد ممدوح أكبرهن، يلثم الجيد، ويلعق الأثداء الدافئة، يثخن بيديه ما لا يحل له لمسه إلا بـ«الميثاق الغليظ»... يتلذذ بإهانة الخولي مسعود والثأر منه، كلما علت أنفاسها اللاهثة، وتأوهاتها المتلاحقة، ثم يبصق بعد أن يقضي منها وطره، مخاطبًا الخولي في نفسه: «لقد اعتليتك يا بن الصرمة، ونلت من صلبك بعصاي، وغمدت وتدي في سفح جبلك البكر».

بعد عام... عادت العائلة إلى البيت الجديد، بالطوب الأحمر والأسمنت، المسقوف بالخرسانة. بيت غريب بين بيوت الطين، اختلطت بشأنه مشاعر القرويين. مشاعر بلهاء غامضة، خليط من الفوضى، تتفلت مثل قراميط البرك، بدأت بالتهكم: إذا مرَّ أحدكم تحت شباك بيت الراحة، سيسمع «جيص» أبو ممدوح، ويشم «فساء» أولاده.

وكعادة الناس مع كل جديد: ينتقدونك بشدة ويراقبونك

بلهفة... ثم يقلدونك بدقة... لم تمض بضع سنوات، حتى هُدمت نصف بيوت القرية، وأعيد بناؤها بالطوب الأحمر والأسمنت!

(٢٢)

في ربيع عام ١٩٦٨، لم يكن للقرية أحاديث، إلا ظهور ستنا «مريم» أم سيدنا عيسى فوق كنيسة العذراء في القاهرة.

اجتمع ممدوح ـ الذي يشعر بذاته أكبر من عمره ويميل إلى مصادقة الكبار ـ وأصدقاؤه تحت شجرة جميز، الشيخ «علي أبو طرطور»، في مصلى صغير، مفروش بالقش لصق الرشاح، كان أبو طرطور يجمع بالليل لبن الجميز، كل ربيع، قبل أن يثمر، فهي حرفته التي يعتاش عليها، يجففه ثم يبيعه لأهل القرية كعلاج لمشاكل المعدة والأمعاء والطمث والنفاس. وفي النهار يجمع الصمغ من شجر السنط وبيعه لميتاؤوس الإسكافي.

رجل يأنس إليه الشباب والصبية، حلو الحديث، منظم، ومرتب، ويعرف تاريخ شجرته التي يأتيه خيرها كل عام، لا يمل من تكرار حكايتها، وكثيرا ما يمد عنقه تيها، وهو يذكر سيرة شجرة الجميز العطرة، وكيف أنه صُنع من خشبها نعش الإله «أوزير»... يضحك الشباب ويلاطفونه:

– مَنْ الإله «أوزير» يا عم علي؟!

– والله... يا أولاد ما أعرفه. سمعته من المرحوم أبويا.

ـ هههه... تقسم بالله؟! أي إله؟! إياك تقصد «الإله» أوزير؟!

– لا حول ولا قوة إلا بالله. ربنا رزقني الليلة بجبلاية قرود!

تنهد تنهيدة طويلة وأطرق بعض الوقت ثم فاجأهم بما هو أثقل:

– ما رأيكم... إن أرواح موتانا تغادر «التُرب / المقابر» كل ليلة، وتأتي هنا على هيئة طيور، لتأوي إلى شجرة الجميز، حيث تجد حاجتها من الطعام.

– هههههه... عادي!

– يعني تصدقونني؟!

– ولِمَ لا؟!.. إذا كنا صدقنا إن ستنا مريم أم سيدنا عيسى ظهرت فوق كنيسة العذرا في مكان اسمه الزيتون في مصر/ القاهرة.

– سمعت «طراطيش» كلام عند مسجد أبو سعود. وقالوا إن «الواد» فوزي أبو طلوقة سيغادر مع أمه، للقاهرة لتشفيه العذراء من شلل الأطفال.

كان ممدوح قد أطلع من أبيه على تفاصيل أكثر، من جريدة الأهرام، ابتاعها أبوه خصيصا لهذا السبب:

– سمعت أبي يذكر سائق أتوبيس اسمه «فاروق أبو عطوة» سمع صياح بعض المارة فخرج مسرعًا ليعرف ما الأمر، فوجد أناسًا متجمهرين أمام الكنيسة، يشيرون إلى القبة، فرأى سيدة تلبس ملابس بيضاء وتقف فوق القبة البحرية، وكأنها تنوى الانتحار، ولكنها لم تتحرك، ودقق النظر فوجدها على شكل راهبة وفجأة طار فوقها حمام أبيض. وشخص ثاني اسمه... اسمه (ويزم ممدوح شفتيه)... اسمه... آه اسمه «مأمون» تقريبًا، قال إنه سمع خفير الجراج يصيح بصوتٍ عالٍ (نور فوق القبة)، فخرج بسرعة وشاهد بعينيه سيدة تتحرك فوق القبة، ويشع منها نور غير عادى، فأضاء ظلمة المكان المحيط

بالقبة، ودقق النظر إليها، وظل بصره متعلقًا بها، فتبين أنها العذراء وأنه رآها تمشى فوق القبة الملساء، جسمها شعلة من النور وكانت تسير في هدوء.

أطرق «علي أبو طرطور» طويلاً منصتًا لحديث الأولاد مستمتعًا به، وراقت له فكرة السفر وعرض زوجته على العذراء لعلها تنجب له ذكرًا يخلّد اسمه ويأخذ عزاءه بعد وفاته، بعد أن سمع «ممدوح» من أبيه، أن الرئيس عبد الناصر بذات نفسه ونائبه حسين الشافعي أمضيا الليل بطوله أمام الكنيسة ينتظران العذراء، وأنها تجلت لهما وهما يجلسان فوق سطح دار في حي الزيتون لأكبر تجار الفاكهة في مصر:

– لو الحكاية صحيحة يا أولاد، يبقى باض لي اليمام على الوتد.

لم يفهم الشباب ما يقصده أبو طرطور ولم يحرك فضولهم بشأنه... وعاجله ممدوح بما يبلل به حلمه الجاف:

ـ قال أبي أيضًا إن وزارة السياحة أرسلت تقريرًا عن ظهور العذراء إلى سفارات مصر والمكاتب السياحية بالخارج.

غير أن «شعبان أبو حامد»، وهو شاب شقي وخفيف الظل ومثقف ويدرس التاريخ في الجامعة، غرس بذرة الشك في يقين الرجل الذي كاد أن يكتمل في ضميره:

– ما يحيرني إن العذراء، منذ وفاة المسيح لم تظهر ولا مرة! فلِمَ ظهرت لنا الآن تحديدًا؟!

ردَّ أبو طرطور قائلاً:

– تعرفون أن «الواد» ميتاؤوس الإسكافي، كل جمعة ينصب

فرشته أمام داري... سألته نفس سؤالك يا «شعبان» قال لي:
- العذراء جاءت للرئيس برسالة «تأييد» من السماء بعد النكسة. وإن البابا أكد لهم تجلي العذراء فعلاً.

ضحك شعبان أبو حامد وأشاح له بيده هازئًا:
- يا عم الحاج، البابا كيرلس والرئيس بتاعنا «رأسان في لباس»!

كان ممدوح يقضم أظافره بلا وعي من سخونة الحوار وتوتره... ثم طرح سؤالاً قلب الموضوع رأسًا على عقب:
- ما يحيرني هو لِمَ ستنا مريم هي التي «تجلت / ظهرت» فوق الكنيسة وليس سيدنا عيسى؟!.. بالعقل كان الأولى بالظهور هو سيدنا عيسى وليس ستنا مريم!

قهقه شعبان أبو حامد وهو يتسلق مثل الأرجيحة جزعًا متدليًا من الجميزة، وقال ساخرًا:
- لأن الزعيم «عايز كده»!!

نهره علي أبو طرطور غاضبًا:
- «واد» يا شعبان: سأكوي لسانك بالماشة بتاعة الجوزة... عمري ما رأيتك تركع راكعة واحدة لله. والسيجارة بين شفتيك مثل الزمارة في نهار رمضان... يعني لا يهمك محمد ولا المسيح ولا العذراء... خليك في حالك.

هبط أبو طرطور من الجميزة، قاطفًا ما تيسر له من لبنها، ثم جمع حوله الشباب ناصحًا:
- تجلي ستنا مريم هو الصحيح... من فينا: مسلمون ومسيحيون، يختلف على ستنا مريم؟! فيه إجماع عليها...

أما لو ظهر سيدنا عيسى فوق الكنيسة «الدنيا هتولع» لأن فيه خلاف عليه: نحن نقول عليه إنه «نبي» وهم يقولون عليه إنه «إله»... يعني ظهوره يبقى «فتنة كبيرة»... ومصر تحتاج إلى الوحدة الوطنية يا أولاد والاصطفاف خلف الزعيم جمال عبد الناصر. ربنا ينصره... ربنا ينصره على أعدائنا ولاد الكلب أعداء الدين.

ضحك شعبان حتى كاد يسقط على الأرض وهو ينادي:

- يا عم علي إذا كنت أنت «أبو طرطور». فنحن لسنا طراطير.

ضج المكان بالضحك: هههههه.

-اخرس «يا قليل الحيا» ويا «قليل الربابة» والله لولا أبوك المدرس المربي الفاضل لقصفت رقبتك بالمنجل.

أقبل عليه «أبو حامد» مبتسمًا بود يمسح على كتفه ويلثم عمامته ليسترضيه:

- أنا غلطان لك يا عم «علي» لا تغضب والله كلنا نحبك ونأنس للكلام معك.

- خلاص، خلاص، اقعد يا «قرد» ندخن سويًا حجرين معسل.

تحلقوا حوله، متدثرين بالضحك والنكات والقفشات... في حين مال «أبو حامد» على أذن عم «على أبو طرطور». ودس في سيالته «قرش حشيش» هامسًا له «حلاوة الصلح يا كبير!»... وممدوح مطرقًا. لم تفارق الابتسامة وجهه الجميل... مكتفيًا بالمشاهدة، زاهدًا في الحشيش والدخان و«كركرة» الجوزة.

(٢٣)

كانت البيوت تتثاءب، بعد قيلولة هانئة، استرخت فيها قليلاً الأجساد المكدودة، بعد أن وهن عظم الصيف القاسي، وترهلت حرارته وخارت سخونته، أمام خريف بدا مع أول إطلالة له، عفيا موحشا مخيفا، يلقي بحمم الاكتئاب والتشاؤم ومباغتة المصريين، بما لا يتوقعونه، ومن حيث لم يحتسبوا.

مساء يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، نهض ممدوح من قيلولته مفزوعًا على صراخ وعويل إحدى شقيقاته، تلطم الخدود وتشق الجيوب. تجمع حولها كل من في البيت، يسألونها مذعورين، وقد ألقي في روعهم، أن واحدًا منهم قد أصابته مصيبة الموت. يلحون عليها أن تلتقط أنفاسها، وتجيب. وقد أخذتهم الصدمة كل مأخذ:

-ماذا حدث؟!

- عبد الناصر مات... عبد الناصر مات... عبد الناصر مات.

ركض ممدوح صوب كنبة أسفل شباك الصالة، ارتقاها، ليجد الشوارع والحواري قد أمست مثل عاصفة برق ورعد وزلزال شق الأرض وهز الأبنية والجدران، يندفع طوفان من أهل القرية، يحملون النعوش، ويلهجون بالهتافات «لا إله إلا الله... عبد الناصر حبيب الله».

وحده ممدوح الذي ظل مثل «لوح الثلج»، يتأمل المشهد، يرمقه بنظرات بلا معنى، لمح صديقه عاطف عبد الرازق، رابضًا فوق مصطبة بقالة الحاج «جاد»، يغالب بسمة خفيفة

وسيماء الانتشاء على وجهه، تكاد تفضحه.

نزل إليه. وقف جواره صامتًا، ثم مال على أذنه:

– البقاء الله.

– الحمد لله!

وكزه بكوعه في جنبه وكزة استنكار خفيفة:

– تحمد الله على إيه؟!

– يا ممدوح: الحمد مطلوب في السَّراء والضراء.

– لا أراك حزينًا مثل بقية أهل البلد؟!

– علام الحزن؟!.. على من حرمني من أبي واعتقله وألقى به في السجون وأنا لا زالت نطفة في رحم أمي؟!

ثم أردف عابسًا، هامسًا بحذر:

– في ستين داهية.

تذكَّر ممدوح يوم بكى أبوه خوفًا ورعبًا، عندما احتجَّت أخته على خروج الناس مطالبين عبد الناصر بالتراجع عن قرار تنحيه عن السلطة، بحرق صحيفة الأخبار في فرن الخبيز.

تذكَّر أباه عندما وثب من نومه مذعورًا، مرتبكًا يتخبط في أثاث الغرفة، ينادي على بناته وزوجته، وأحكم غلق الباب الرئيسي والنوافذ، يسوقهم بيد مرتعشة، نحو آخر غرفة في البيت، فلا يسمع العابرون والجيران لهم صوتًا، وهو يغمغم بصوت أذله الرعب:

ـ الحيطان لها ودان ويا أولاد الكلب... سترسلونني «وراء الشمس»!

ثم انخرط في البكاء وهو يوصيهم بالصمت وكتمان ما حدث وأخذ عليهم موثقًا ألا يطلع أحد على ما حدث في البيت اليوم.

••••

نامت القرية، ليلتها وقد أنهكها العويل والصراخ والبكا، وحمل النعوش والتطواف بها في شوارع القرية وحواريها وأزقتها... نامت لأول مرة بدون الزعيم الخارق، الذي يعبر البحر بخطوة، ويحمل أعتى بناية في البلد على إصبع يده الصغير: ما عساهم يفعلون من دونه ؟!

في اليوم التالي من تشييع جثمان عبد الناصر، استقل ممدوح ومحمد أبو كرم وعاطف عبد الرازق، وشعبان أبو حامد بعد الفجر، القطار القادم من طنطا إلى الزقازيق، ولأول مرة يتشاركون معا، في سداد ثمن الصحف الثلاث، ويحملونها معهم إلى القرية.

بعد الظهر اجتمعوا في مصلاة صغيرة، تحت ظل شجرة توت عتيقة، لصق مكتب ناظر محطة السكة الحديد، يتصفحون الجرائد بالتناوب.

ألقى شعبان أبو حامد الصحيفة من يده، وتساءل بشقاوته المعهودة:

ـ الراجل كان «زي الفل»، وفجأة يقع من طوله !! الموضوع فيه إنَ وأخواتها وخالاتها وعماتها وجداتها!

ردَّ عاطف عبد الرازق شامتًا:

– يا عم... الأخ «الفقيد» من عائلة كلها «وقيع»... سمعت إن اثنين من أشقائه مثله ماتوا بالقلب. ولكن المؤكد إنه مات

بالنكسة وليس بالسكتة... وربنا سبحانه...

وقبل أن يكمل قاطعه ممدوح:

– كان دائمًا يقول لي ابن ناظر المحطة الأستاذ حاتم عبد الحفيظ في «نفيشة» إن عبد الناصر عندنا مثل ستالين في الاتحاد السوفيتي...

وقبل إن يكمل ابتسم شعبان أبو حامد هازًّا رأسه:

– تعجبني يا «واد»... الاثنان مثل «جنّيات» بحر مويس، يخر أمامهما أعتى الرجال هدا.

– انتظر يا شعبان ريثما أكمل!

أشاح له بيده مستظرفًا:

– اتفضل يا ابن زهيرة... سمّعنا

– سمعت من الأستاذ حاتم عبد الحفيظ إنه عندما مات ستالين بقي بالفعل ملقى على الأرض ليوم كامل لأن أحدًا لم يكن يجرؤ على الدخول إليه دون إذنه.

نهض أبو حامد من مكانه كأنه لدغته حيَّة وهو يلوح بيديه مسرورًا:

– حلو حلو حلو يا «واد»... والله يا واد يا «قُزعة» أنت أصغر «عيل» بيننا، لكن لك عقل أكبر من عقل ابن البُلغة العمدة... فكرتني: أحد الشيوعيين بعد ما أطلق عبد ناصر سراحه في قضية التنظيم الشيوعي شاء أن يهاجم الشيوعيين مجاملة للرئيس فكتب يقول: خروشوف، أحد رجالات ستالين ووزير زراعته كان يهتم جدًا بانتقاء النكات التي يُلقيها في كل حفل يقيمه ستالين. كان يعود إلى منزله وقبل أن ينام يُراجع مع

زوجته النكات التي قالها وأيّ منها أعجب الزعيم وأيّ منها لم يُعجبه كي لا يكررها... في اليوم التالي... اعتقلته مخابرات عبد الناصر وعلقوه في سجن القلعة مثل الذبيحة.

ضج المكان بالضحك: حمار!... وقال أحدهم:

– نسي أن الزعيم على رأسه بطحة.

كان محمد أبو كرم مشغولاً عنهم في قراءة تفاصيل الجنازة... فنهره أبو حامد:

– ما بك؟!.. «شايل طاجن ستك» فوق دماغك؟!

– شغلني خبر غريب جدًا... مكتوب هنا إن الشرطة أحبطت محاولة من أتباع طرق صوفية كانوا ينوون خطف جثمان جمال عبد الناصر، ويطوفون به على أضرحة أولياء الله الصالحين، والإعلان أنه «سادس الخلفاء الراشدين».

قهقه أبو حامد، وأصدر من حنجرته صوتًا بذيئًا:

– لا يوجد خليفة من الخمسة مات مهزومًا وفي عنقه دم مسفوح.

يتصفح «أبو كرم» الصحف الثلاث ورقة ورقة بلا ملل أو سأم ويقرأ عليهم كل ما يلفت انتباهه واستغرابه:

– يقولون حضر الجنازة ٧ مليون مُشيِّع.

لا يكف طويل اللسان «شعبان أبو حامد» عن السخرية متسائلاً بتهكم:

– من أحصاهم وعدهم عدا؟! الكل يضرب أرقامًا واثقًا بأن أحدًا لن يراجعه فيما يكذب.

– اسمعوا هذه أيضًا: في لبنان، انطلقت مسيرة ضخمة في

بيروت وقُتِل فيها أكثر من عشرة أشخاص بسبب الفوضى، وفي القدس سار ما يقرب من ٧٥ ألف عربي خلال البلدة القديمة وهم يهتفون: «ناصر لن يموت أبدًا».

استاء أبو حامد متذمرًا مما يسمع:

– يا أبو كرم: القط يحب خناقه... يعني عادي «الهبل ده»... غيّر مؤشر الراديو وحياة أبيك... هذا الكلام يستفزني.

– يقولون إن الأخ معمر القذافي....

قاطعه أبو حامد:

– تقصد الواد «أبو شورت»؟

– هههههه نعم... يقولون إنه أغمي عليه مرتين في الجنازة جرَّاء الاضطراب العاطفي.

– كلهم ممثلون. إلا الملك فيصل، رفض المشاركة في المسرحية.

شخط فيه ممدوح غاضبًا:

– يا أبو حامد: زودتها كتير... لم تكن مسرحية. كانت انفعالات عفوية ومُحبة فعلاً للرجل. أنا في نفسي شيء منه، لكني لم أكرهه. افتح صفحة «كذا» في صحيفة «الأخبار» تجد صورة فلاحة ترتدي السواد وتصرخ بكل حزن وألم « سايبنى لمين يا ريس؟». جسَّدت الست البسيطة «دي» حال غالبية المصريين الآن.

هاج أبو حامد، وعلا صوته غير وجل ولا خائف من التنصت والتلصص من مخلفات الزعيم الراحل:

– اسمعوني يا غجر: الإنجاز الوحيد لعبد الناصر كان جنازته. لأن العالم لن يرى مرة أخرى خمسة ملايين من الناس يبكون

معًا.

ثم نهض بعدها متعجلاً منتعلاً حذاءه مغادرًا المحطة مستقبلاً «غرزة» على أطراف القرية اعتاد التردد عليها للتدخين وشرب ما تيسر له من عصير القصب البايت.

(٢٤)

بعد ظهر يوم السادس من أكتوبر، ضجت الأزقة والحواري والشوارع، بالزغاريد والتهليل والتكبير: «عبرنا القناة»...

وحده ممدوح الذي لم يرجف له جفن، بقى باردًا مثل لوح الثلج، جلس على آخر درج بالسلم في مدخل البيت، يتأمل الناس المبتهجة في غدوهم ورواحهم. لم ينبس بكلمة، وعادت تدق على رأسه الطبول:

- في يونيو ضحكوا على البلد كلها ثم أهانوها، من يقدم «شهادة ضمان» بصدق بيانات العبور والنصر وتحرير الأرض؟!

سمع من أبيه: « لا يُلدغ المؤمن من الجحر مرتين»...

- وكم لدغنا مرات في جغرافيا الأكاذيب والأفاعي التي التهمت «بيوض» الرجال، فخضعت الأصوات لـ «الكوبرا» وتزملت الرؤوس بالطرح مثل النساء.

من داخله يتمنى أن يصدق، ولكن يصده عن ذلك، تجربته:

- هناك في «نفيشة» مروا على الأسفلت بشارات النصر... ثم عادوا إليها يضمدون جراحهم ويرتقون ثيابهم الممزقة، يتكففون نظرات الشفقة من العابرين عند «التقفيصة».

انتصف ليل القرية، مرَّ من أمامه عم سيد البهنساوي، يتطوح يمينًا وشمالاً، سكرانًا تجرَّع حتى الثمالة قُلل عصير القصب البايت أو الدهتورة. ربما... يُخرِّف. يضحك بهوس ويهلوس:

– الريس يقول لا يخاف الوطن أصبح له درع وسيف.. ها ها ها!

ثم يزغر إلى ممدوح بعينين حمراوين، يتفرسه مطرقًا:
– قل لي يا متعلم يا بتاع المدارس «أنا فين وأنت فين والناس فين؟! وطن، درع، سيف؟! ها ها ها ها».

انطلق يتعثر في قدميه تتخبط يمينه بيسراه. يصلب عوده بمشقة...

في وسط الحارة توقف فجأة. مال بجسده إلى الأرض. التقط حجرًا صغيرًا. خطَّ به خطين، ثم رجع للخلف خطوات. نادى بصوت مشطور يتقاسمه الهزل والجد، زاعقًا:
– سأعبر القناة... سأعبر القناة.

طوى طرف جلبابه وعضَّ عليه بمقدمة أسنانه. اندفع. قفز. سقط على الأرض. ظلَّ على حاله مُغيَّبًا، إلى أن أفاق بُعيد الفجر بقليل، على وقع حوافر المواشي وهي تتحاشي دهس جسده بصعوبة.

تركت كلمات سيد البهنساوي السكران، طنينًا لا يكاد يبارح عقل ممدوح، يتساءل موشوشًا نفسه القلقة والمترددة بين الصدق والكذب:
– يعني إيه لا يخاف الوطن؟! ويعني إيه بقى له درع وسيف؟!... البهنساوي كان سكرانا، من أين جاء بهذه الحكمة؟! أمر يحير حقًا!

بعد الظهر مرَّ عليه البنهساوي ممتطيًا حماره العجوز، نادى عليه ممدوح:

– «نموسيتك كُحلي» يا عم سيد... إنت رايح الغيط بعد الظهر؟!

– يا بني كنت سهران بمد سنكي البندقية وأشق السواتر، وأتوغل في العمق الجواني... البلد كلها يا بني قعدت القرفصاء تحت شباك غرفة نومي تسرح وتحلم.

قهقه ممدوح وخاطبه مازًحا:

– التلصص عليك وأنت رافع الرايات على الفراش بالليل، فطَّر البلد كلها في رمضان.

– ها ها ها... «مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ». الحمد لله، أخذت ثواب إفطار المتلصصين من أهل البلد.

–اجلس، لا يزال الوقت مبكرا على مدفع الإفطار، وبلا ش «بكش»... سمعتك وانت راجع سكران وكأنك تتهكم على كلمة الرئيس «مش عاجبك».

– إنت قلتها يا أستاذ ممدوح: كنت سكرانا. أتصدِّق سكرانا؟!

نهض مذعورًا، قفز على حماره... ثم التفت إلى ممدوح:

– غدًا ستعرف وترى بعينيك.

زمَّ ممدوح شفتيه:

– ربما!

(٢٥)

بعد صلاة الفجر، استكانت البيوت للنوم اللذيذ، وأرخى أول النهار، ظله الرمادي الشفيف، ليّنًا مسدولاً، مبللاً بالندى فوق الأسطح المتدثرة بالحطب الجاف...

لمح ممدوح من على بسطة بيته، تجمعًا من المصلين، أمام باب مسجد «أبو سعود»، يتوسطهم إمامه الشيخ فايد الطاروطي، وكأن ثمة شيئًا جللا يشغلهم ويثير قلقهم. دلف إليهم وحشر جسده بين الصفوف، ينصتون باهتمام إلى الشيخ الطاروطي:

- سمعت في إذاعة لندن إن الجيش الإسرائيلي وصل «نفيشة» و«أبو عطوة» و«جبل مريم»...

خارت قدما ممدوح وتفككت أوصاله، جلس مثقلاً، على أقرب مصطبة طينية، قبالة المسجد:

- يلعن أبو أمك يا حاتم عبد الحفيظ... من أين جئت بهذه الثقة وأنت تؤكد لنا أنهم لن يصلوا للإسماعيلية ولا القاهرة؟! ها قد وصلوا نفيشة وعلى بعد كيلومترات من العاصمة! والله عم سيد البهنساوي المسطول يفهم أحسن منك يا بتاع «موسكو»... يعني نحن عبرنا... وهم عبروا؟!.. يعني: من الذي انتصر؟ ومن هو المهزوم؟.. إيه النكتة البايخة دي؟!

(٢٦)

انتهت الحرب، ولم يتبدّل شيء، إلا طلاء واجهة المشهد بقشور السلام، ومن خلفه بقيت أشياؤنا كما هي، محتفظة في شونها البعيدة والقريبة، بغلال الكراهية مبدورة في شقوق جروحها الغائرة، وسماؤنا مثل أثداء الأم الحنون، تمطرها بغيمات، بلون دم الشهداء، وشذى الأرض السليبة.

هكذا ظل الضمير متدثرًا بعدالة قضيته، لكن النيل لم يبقَ كما كان قبل الحرب، مأوى للبلهارسيا وحسب، التي فتكت ـ لعقود ـ بأكباد الفقراء ملح الأرض ومحرريها، بل بات يشبه أمعاء البلد الغليظة، يتجرع مرغمًا ما تجود به مصانع باشاوات «ما بعد الحرب» من سموم ومخلفات، جرت بعدها في شرايين الناس مجرى الدم.

وضجت ليالي السمر على المصاطب، وقعدات المزاج على المقاهي، وخلف كل باب مغلق على وجع أهله، وداخل غرف دواوين الحكومة المعتمة، همس ما يصلهم من «نزوات» صناع السلام في فنادق العاصمة، التي لا يعرفها إلا أصحاب الكروش والواسعة وذو الحسابات البنكية المنتفخة.

استعصى المشهد على الهضم، وشوهد ممدوح يتقيأ، على جدار مركز شاب القرية، لحظة مرور شعبان أبو حامد:

– أراك وكأنك قد أصابك مكروه؟... سلامتك!

– لا شيء... أنا بخير، ولكن..... (ولم يُكمل).

– ولكن ماذا؟

– قرفان.

– من ماذا؟

– الواد عبده أبو دبايح...

– أين رأيته؟!.. ومتى جاء؟!... إنه يعمل نادلاً في «الشيراتون» ويقضى غالبية أيامه في القاهرة.

ـ سمعته عند فتحي المكوجي، يقسم بأنه رأى نجوى فؤاد ترقص لـ «كسينجر» في الفندق الذي يعمل به. ورآها مرة أخرى ترقص له في فندق آخر اسمه «هوليداي». وترامى إليه إنه طلبها للزواج!

أطرق أبو حامد منصتًا وعلى وجهه لمعت بسمة «شفقة» على ممدوح البريء ومضى الأخير يفرغ ما في صدره من حمل ثقيل:

– من بين ما سمعته من «أبو دياب» أن تاجر الفول السوداني «جيمي كارتر» سال لعابه على جسدها البض، ورقصت له وحده في «المريديان».

– سمعت أكثر من ذلك من زملائي في الكلية.

– ماذا سمعت؟

دوت من أبي حامد ضحكة خليعة، أثارت ضيق وامتعاض العابرين... مال بعدها على أذن ممدوح وهمس له:

– يقولون إن الرئيس «المؤمن» وضع منهجًا جديدًا لطلبة العلوم السياسية!

أستاء ممدوح من رده، وظنه لم يفق بعد، مما يتعاطاه ليلاً في «غُرز» القرية:

– منهج إيه، وزفت إيه؟ ألم تُقلع بعد عن تناول «الدهتورة»؟!

– أنا جاد جدًا يا بن زهيرة... زملائي اليساريون يهمسون متهكمين عليه.

وقبل أن يفضي بسره، أطرق قليلاً، وهو يتلفت بقلق، يتفقد المكان من حوله. ثم باغتته نوبة ضحك، خارت أمامها قدرته على كتمها. يشهق ويلهث وقد خرجت الكلمات من فيه ثقيلة لا يكاد يُفهم منها شيء:

– يقولون (يرددها ثقيلة متقطعة أكثر من مرة): إنه أسَّس علمًا جديدًا اسمه «دبلوماسية الرقص الشرقي»... هههههه

– صحيح... شر البلية ما يضحك!

– أزيدك من الشعر بيتا؟

– هات ما عندك (قالها بفضول بارد)

– سمعت زميلاً لي في الكلية ينقل عن أبيه «المسؤول الكبير» زعمه أن الرئيس ـ ذات مرة ـ مازح سهير زكي وهي ترقص في حضوره أمام نيكسون. وبخفة ظله المعروفة قال لها: «أيوه يا سهير رقصتي أمام الكتلتين الشرقية والغربية»!

ابتسم ممدوح ابتسامة ميتة، لا روح فيها، يعوزها يقينه بصدق ما يسمع.

سكت عندها أبو حامد عن الضحك والثرثرة، ولكن آلمته غصة في حلقه، لسوء ظنه بممدوح:

- أراك لا تصدقني... أو كأنك تهزأ بي؟

- لِمَ لا أصدِّقك أو أهزأ ؟!... والبلد كلها: المقاهي والأرياف والمدن والنجوع والميكروباصات وسيارات الأجرة والكاسيتات والفلاحون في أزقة القرى وفي الغيطان تصدح مع «عدوية» بـ«السح الدح امبو»!

(٢٧)

التحق ممدوح بكلية العلوم جامعة الزقازيق، وعشية انتظامه في أول يوم جامعي، نهض مفزوعًا من قيلولته، هرج ومرج، وشتائم ووقع أقدام تركض هنا وهناك.

فتح شيش نافذة غرفته المطلة على الشارع... ترامى إليه صوت ضابط الدورية، وهو يأمر جنديين برفقته بربط يدي شيخ الخفر «صلاح البنا»، بحبل خشن وقاس، وعقده في ذيل فرسه، وسحبه على وجهه في شوارع القرية، ينزف دمًا ويقسو على جسده النحيل بكرباجه الميري، ثم يركله بحذائه الثقيل، ويُلقي به وسط ميدان، يكسوه الحصى الجارح، ويكتظ بالعابرين ومحال البقالة... ثم يستدعي «متولي» الحلاق، ويأمره بحلق نصف شاربه المعقوف، ويترك نصفه الآخر، وحمله على «أتَان» عجفاء، ظهره لرأسها، ورأسه لدبرها، وطافوا به طرق وحواري القرية.

همَّ ممدوح بالتعدي على الضابط، بيد أنه سكت، وتراجع كاظمًا غيظه، تحسبًا لعواقب قد تنال من كرامته...

رمق من بعيد سيد البهنساوي، ينظر إليه هازًا رأسه هازئًا:

– لسه يا أستاذ ما فهمتش كلام الرئيس؟

– مش ناقص أسمع كلام مساطيل.

– ها ها ها... قالوا: خذوا الحكمة من أفواه المساطيل.

أشاح ممدوح وجهه بعيدًا عنه متضايقًا...

ولكن البهنساوي لاحقه بخفة ظل:

– يا بني كان فيه زمان شاعر «بتاع غلمان/ عيال» لا يفيق من الخمر... كان هو والأمير/الرئيس «بتاعه» زي ما تقول كده «رأسين في لباس»... الشاعر المسطول صاحب الأمير «المؤمن» أيامها قال إيه؟.. أسمع يا ابن زهيرة:

دع المساجد للعباد تسكنها... وطف بنا حول خمار ليسقينا
ما قال ربك ويل للذين سكروا... ولكن قال: ويل للمصلينا
ها ها ها ها

– يعني إيه يا عم سيد؟.. إنت فايق ولا مسطول؟!

– يعني: صدقني أنا المسطول، ولا تصدق ابن المركوب عمدة بلدنا المحتال.

– إنت هتعملي فيها البهلول «أبو الريش» وتكلمني بالألغاز؟

تبدلت قسمات وجه البهنساوي، وارتسمت عليها سيماء الجدية... التفت يمنة ويسرة ثم مال إلى أذن ممدوح:

– لا يمكن أن يحدث مثل ما حدث مع عمك صلاح البنا شيخ الخفر. قبل الحرب والعيون مكسورة!

– والحرب انتهت يا ممدوح... لعلك تكون فهمت الآن؟!

– نعم فهمت... ولكن كيف؟!.. وعم صلاح البنا الذي أهانه الضابط أمام الخلق «مواطن» مصري؟

– الرئيس قال «الوطن»؟ أم قال «المواطن»؟

– لا أريد هلاوس مساطيل.

– يا ابني افهم... قال «الوطن»... صدقني كل شيء سيتغير.

شعر ممدوح أن ضابط الدورية أهان البلد كلها في شخص شيخ الخفر صلاح البنا، لم يعد إلى منزله بعدها، ويمَّم وجهه شطر بيت ابن عم أبيه شيخ البلد وقص عليه ما حدث.

– نم يا ممدوح قرير العين... الموضوع لن يمر بسلام.

– ماذا بوسعكم أن تفعلوه؟

– لا شيء!

ابتسم ممدوح هازئًا ثم سأله بتهكم:

– لِمَ ـ إذن ـ تتحدث بثقة بأن الأمر لن يمر بسلام؟

– عائلة البنا... من العائلات الكبيرة في الدلتا، وتمتلك نصف أراضي الناحية بناسها ودورها ومواشيها. ولهم كلمة مسموعة عند الباشاوات الكبار.

استأذن ممدوح منصرفًا غير مقتنع بما سمعه من شيخ البلد.

لكن بعد أسبوعين تحدثت القرية كلها عن قرار مديرية أمن الشرقية، بوقف الضابط عن العمل وإحالته إلى التحقيق بمعرفة إدارة التفتيش بوزارة الداخلية.

صادف القرار هوى في نفس ممدوح، واسترخت نفسه بعد توترها بعنف، بسبب ما سمعه من سيد البهنساوي.

(٢٨)

في أول يوم جامعي، فوجئ ممدوح بابن ناظر المحطة في نفيشة حاتم عبد الحفيظ، أمامه على منصة المحاضرات، أستاذًا له في مادة Chemistry Quantum، فرحته به، حملته مثل موج البحر، وألقت به على يابسة بعيدة عن التركيز وسماع المحاضرة.

قبل أن يدلف مغادرًا القاعة... نادى عليه:

- دكتور حاتم!

- وجهك ليس غريبًا عني.

- نعم أنا ممدوح من «نفيشة»، كم تحلقنا حولك أنا ورفاقي عند التقفيصة.

تعانقا بشدة... يا للصدفة الحلوة... قالاها معًا.

في مكتبه بالدور الثالث بكلية العلوم، جلسا يذكران «نفيشة» وأيامها ولياليها:

- والله يا دكتور حاتم رؤيتك ضمدت جرحًا غائرًا ما انفك ينزف صديدًا بداخلي منذ أيام.

- سلامتك! خيرًا إن شاء الله.

قصَّ عليه اعتداء ضابط الدورية على شيخ الخفر... وما سمعه من البهنساوي... وما سمعه من شيخ البلد.

- أحسن البهنساوي قراءة الطالع. وصدق شيخ البلد في توقعاته.

ابتسم ممدوح قائلاً:

– هذا يناقض ذاك: الأول رجل مسطول يتوقع علو كعب «باشاوات ما بعد الحرب» على الشعب... والثاني رجل عاقل ورصين. يصدح مع عفاف راضي: الباقي هو... هو الشعب.

ضحك د. حاتم حتى بدت نواجذه، ضحكة غطت مساحة وجهه بالكامل:

– على فكرة... هذه الأغنية كتبها سيد حجاب قبل الحرب. ورفض «عبد الحليم حافظ» غناءها. والأزهر أيضًا رفض إجازتها!

– كأني بك... تغمز بعينيك «الحدق يفهم»!

هذه المرة، دوت ضحكة د. حاتم في المكتب، مثل الطبل ثم واصل كلامه:

– السادات كان جنرالاً، ولكنه كان ناشطًا سياسيًا، وأكثر ضباط يوليو ثقافة وتجربة. وتاريخ طويل من الشقا والمرمطة والهروب من المعتقلات وكان من بين ٢٠ شابًا شاركوا في اغتيال وزير المالية آنذاك أمين عثمان عام ١٩٤٥.

– لِمَ قتلوه؟!

– كان وزيرًا في وزارة مصطفى النحاس التي فرضها الإنجليز بقوة السلاح عام ١٩٤٢. طبعًا كان تعليمه وتربيته في أحضان الإنجليز. وتزوج واحدة منهم تدعى «الليدي كاترين جريجوري». وتردد أيامها بأنه كان عميلاً لهم.

هزَّ ممدوح رأسه مستمتعًا ومستئنسًا بحديث أستاذه:

– أنا ضيفك اليوم يا دكتور... أكمل...

– خرج السادات من المعتقل بعد ٣٠ شهرًا، بلا مورد مالي، وضاقت به الدنيا حتى توسط له صديقه الصحفي والروائي الكبير «إحسان عبد القدوس» ليعمل محررًا في مجلة «المصور» بدار الهلال. نشر من خلالها مذكراته داخل السجن.

أطرق د. حاتم هنيهة. سحب سيجارة بلومنت. أشعلها. أخذ نفسًا عميقًا. نفث دخانها في وجه ممدوح ممازحًا:

ـ أفق يا عم ممدوح وانتبه لما سأقوله الآن: أخطر ما في السادات إنه استشرافي والأعلى كعبًا من كل الذين كانوا حوله، تذكر أنه طرد الروس من مصر ومحمد حسنين هيكل من قصور الرئاسة، قبل الحرب. أدرك مبكرا ان القادم هو «العصر الأمريكاني»، لا مستقبل للاتحاد السوفيتي. العالم كله سيحتاج أمريكا وحلفاءها، والحل فعلاً في يد أمريكا.

قاطعه ممدوح مستأذنًا في السؤال:

– ما علاقة الأمريكيين باعتداء ضابط الدورية على شيخ الخفر صلاح البنا؟!

– أقصد: أن تراقب بدقة ما يقوله السادات... يعني ما ورد في كلمته أمام مجلس الشعب يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣، ربما كان مقصودًا ومنتقى بدقة ووعي شديدين. البهنساوي البسيط المسطول، في قريتكم، بصراحة يبدو لي أنه بالفطرة، يفهم في علم تحليل الخطاب، فعلاً مكانة المواطن المصري في قابل الأيام ستتراجع كثيرًا لصالح القوة والثروة والنفوذ، وهو الثالوث الذي خرج بحصيلة الأسد بعد انتهاء الحرب.

– ولكني لم أفهم ما حدث بعد ذلك: وقف الضابط عن العمل

وإحالته للتحقيق.

– ما قاله شيخ البلد صحيح أيضًا: ضابط صغير ولا يعي طبيعة «علاقات السلطة» داخل الدولة القديمة، فتورط بعنجهيته وطيشه في خطأ سدد هو ثمنه وحده.

– كيف؟!

– في مصر... القبائل الكبيرة في الصعيد، والعائلات من كبار الملاك في الدلتا، تعتبر جزءًا من صلب الدولة، وهم حلفاء تقليديون للسلطة المركزية في القاهرة... لذا كان متوقعًا أن تعاقب السلطة الضابط الذي أهان واحدًا من أهم حلفائها الأثرياء في الشرقية.

صمت د. حاتم عندما سمع طرقات خفيفة على باب مكتبه. نادى:

– ادخل.

دفع الباب برفق وسأله عامل البوفيه ما إذا كان يحتاج شيئًا قبل انصرافه...

إذ ذاك ترامى إليهما صوت شادية من راديو البوفية وهي تصدح « متقولش إيه أديتنا مصر... قول هندي إيه لمصر».

ابتسم د. حاتم، في وجه ممدوح، ابتسامة لها معنى، غامزًا بمكر بإحدى عينيه له ملاطفًا:

– سمعت «الدلوعة»!! ها ها ها... قدمت لنا الخلاصة. هلا فهمت الآن؟!

(٢٩)

كان أبو ممدوح قد استفاد من الإصلاح الوظيفي، الذي قرره السادات، لتحسين أجور «العمالة الحكومية» الشقيانة، وتحرك راتبه من ٧٠ جنيها إلى ٢٧٠ جنيها في الشهر. بعدها كان يزأر مثل الأسد ويثب في «كرش» أيّ من أبنائه حال ذكر الرئيس بسوء:

– لولاه لكنتم تشمشمون اللقمة في طرقات البلد، مثل «كلاب السكك» يا رمم!

لكن مساء يوم ١٧ يناير عام ١٩٧٧، سمع ممدوح أباه وسط البيت، يجأر بالشكوى ويلعن «سلسفيل» أبو أم وزير المالية عبد المنعم القيسوني:

– يا لصوص ويا أولاد الكلب... آية المنافق ثلاث: « إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» والثلاثة فيكم يا أولاد الصرمة!

انطفأت وسامة أبيه، التي بقيت صلبة متعجرفة في وجه الشيخوخة، واغرورقت عيناه الخضراوان بدموع مترددة:

– ما عساي أفعل في كوم اللحم الذي عندي؟!

صده حال أبيه، عن التمادي في التهكم، مما سمعه منه، وهو المُحب الولهان والمتيم بالرئيس «كبير العائلة»:

– خيرًا يا أبي؟! ما الذي غير رأيك مائة وثمانين درجة؟!

– رفعوا أسعار الخبز والأرز والزيت والسكر والشاي.

– كتير يعني؟

– سمعته أمام مجلس الشعب يقول سيرفع سعر الخبز بنسبة ٥٠٪ والسكر ٢٥٪ والشاي ٣٥٪

ـ هههههه... شيء لله يا عم سيد البهنساوي... سأحرق على عتبة بيتك عيدان بخور من عطارة سيدنا الحسين... وسأشعل تحت شباك غرفة نومك خمس شمعات.

ثم راح يغني: « متقولش إيه أديتنا مصر... قول هندي إيه لمصر».

(٣٠)

ضجت شوارع القاهرة وعدد من المدن بالمظاهرات الحاشدة وأعمال الشغب، رفضًا لرفع الأسعار، يومي ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧.

ارتجت جدران العمارات الشاهقة على جانبي الشوارع الرئيسية وسط القاهرة وميادينها الكبرى، بالهتافات الفظة المتجاوزة في عنفها ضد الجوع والفقر وضد رموز الدولة وقيادتها السياسية:

(يا حاكمنا في عابدين فين الحق وفين الدين)

(سيد مرعى يا سيد بيه كيلو اللحمة بقى بجنيه)

(عبد الناصر ياما قال خللوا بالكم م العمال)

(هو بيلبس آخر موضة وإحنا بنسكن عشرة ف أوضة)

شارك اليسار الناصري والشيوعي بكل أطيافه في المظاهرات، رافعًا شعارات الحركة الطلابية، وأحيلت المظاهرات من صوت احتجاجي سلمي، إلى أعمال عنف واسعة النطاق، أحرق خلالها متظاهرون أقسام الشرطة وأبنية الخدمات العامة ومنها أقسام شرطة الأزبكية والسيدة زينب والدرب الأحمر وقسم شرطة إمبابة والساحل وحتى مديرية أمن القاهرة، واستراحات الرئاسة بطول مصر من أسوان حتى مرسى مطروح واستراحة الرئيس بأسوان، ووصل الهجوم إلى بيت المحافظ بالمنصورة وتم نهب أثاثه وحرقه... واستمرت المظاهرات حتى

وقت متأخر من الليل واجهتها الشرطة بقسوة وأُلقي القبض على مئات المتظاهرين وعشرات النشطاء اليساريين.

قبيل فجر يوم ١٩ يناير، استقل ممدوح وجاره وزميله في الكلية محمد أبو كرم، دراجتيهما الهوائيتين. وصلا الزقازيق مع أول دفقة ضوء ممزوجة بالندى والشبورة، وبدخان أسود غامض، يتسكع في سماوات شوارعها الحزينة شاردًا كسولاً متثاقلاً.

تلقى صحاب فرشة صحف بشارع «البوسطة» منهما، قرشًا مقابل السماح لهما بقراءة الصحف الثلاث: الأخبار، الأهرام، الجمهورية» والتي جاءت عناوينها الرئيسية متطابقة:

(بالوثائق... الخطة الكاملة لحرق القاهرة مع أعضاء التنظيم الشيوعي).

عادا من المدينة قبل الظهر، وبعدها بساعتين أُعلن في نشرة الثانية النصف عن إلغاء كل القرارات الاقتصادية. ونزل الجيش إلى الشوارع، وأُعلنت حالة الطواري وحظر التجوال من الساعة السادسة مساءً حتى السادسة صباحًا.

في مساء اليوم التالي، فوجئ ممدوح بعرض مجموعة من المتهمين الذين أُلقي القبض عليهم بتهمة «الانضمام لتنظيم شيوعي» لحرق القاهرة وقلب نظام الحكم على شاشة القناة الأولى، وكان بينهم صديقه من نفيشة وأستاذه في كلية العلوم د. حاتم عبد الحفيظ، مكبلاً مهانًا وقد تورمت عيناه من الضرب والتعذيب.

سألوه أمام الكاميرات:

- اسمك ومهنتك؟!

– حاتم عبد الحفيظ... أستاذ الكيمياء بكلية العلوم.

– تهمتك؟!

صمت، ولم ينبس بكلمة... شخط فيه بصوت فظ وأجش شخص أخفته الكاميرا:

– انطق يا له... وأجب على السؤال.

نظر بتحدٍ، غير وجل، بدا وكأنه همَّ برد الإهانة بمثلها، ثم بلع ريقه وقال:

– وقَّعت على ورقة تقول إنهم ضبطوني وبحوزتي جركن بنزين لحرق المحال في ميدان التحرير بالقاهرة.

ثم أطرق رأسه إلى الأرض ليخفي دموعه عن المشاهدين.

(٣١)

لم ينم ممدوح ليلته، صعد إلى سطح البيت، مدَّ جسده على كراكيب قديمة، ادخرتها أمه ليوم قد تحتاج إليها، وقد طوقت الصدمة عنق قدرته على التفكير، يداهمه طوال الوقت سؤال واحد:

- هل حقًا ما رأيت وسمعت؟! حتى لو كانت واقعة الضبط صحيحة، لِمَ هذا الغلو في إيذائه جسديًا وإهانته أمام خلق الله؟!

قفزت أمام عينيه صورة عم سيد البهنساوي، وقهقهاته الساخرة، من المتعلم «بتاع» المدارس الذي ما انفك يراوح عاجزًا عن فك شيفرة المستقبل: باشاوات في الجنة... وبؤساء في النار.

تتوحش داخله الرغبة في الانتقام من كل شيء، فقد ثأر لنفسه من الخولي قاسي القلب، وثأر من شقيقاته الجاهلات بتفوقه ودخوله الجامعة، غير أن ثمة هدفًا لا يزال بعيد المنال، كيف يثأر من أمه التي انشغلت عنه بهمومها التافهة... كيف؟ كيف وهي أمه؟!... كيف يثأر من أولاد المدينة، وهم يتندرون عليه بعد تشبهه بأولاد القرية: ارتداء «البيجامات» الجديدة كل عيد عوضًا، عن الملابس الإفرنجية، التي اعتاد عليها قبل الهجرة في الإسماعيلية... كيف يثأر من أولاد قريته الذين سلقوه بألسنة التعالي الحداد: «يا مهاجر»... كيف وكيف وكيف؟!

قلَّب أستاذه المعتقل حاتم عبد الحفيظ عليه المواجع كلها... وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وضاقت عليه نفسه.

في الصباح حملته قدماه إلى بيت على أطراف القرية، ونادى على صديقه «سعيد الصعيدي»، الطالب بكلية التجارة.

– أنا ضيفك الليلة على الكافتيريا ولا مانع من معاشرة النسوان والنوم مع الناموس الجائع على شاطي بحر مويس.

– هههههه... سنرى يا «حيلة أمك»... البحر يكذب الغطاس!

قبل بدء حظر التجوال... اجتمعت الشلة في كافتيريا سعيد الذي اعتاد فيها تدخين الحشيش واستقبال بنات ونسوان الهوى. دفع إلى ممدوح شابة مثل فلقة القمر:

– هذه هديتي لك الليلة بمناسبة الزيارة الأولى.

ارتبك ممدوح وتوتَّر. ارتعدَّ جسده وجرت فيه قشعريرة خوف لم يشعر بها من قبل، رغم أنها ليست تجربته الأولى... ولكن هذه المرة مختلفة إنها فتاة ليل محترفة، المُداعبات معها على الأسطح الساخنة «لعب عيال»... لا توجد منطقة وسطى ما بين الجنة والنار.

– سعيد: أنا في عرضك، لا داعي.

– هههههه... لا تمثل عليَ دور شيخ جامع.

– يا عم لا شيخ ولا كبير الشياطين. ليس لي في اللون.

– نعم يا ابن زهيرة!.. لقد رأيتك ـ ذات مرة ـ بأم عيني وأنت بـ «تقفش» في صَدر «نجية» بنت العمدة خلف جميزة «أبو طرطور» على الرشاح وكاد «يغيبُ المرودُ في المكحلة والرّشاءُ

في البئر»... قالها سعيد وهو يهز رأسه مقلدًا بتهكم شيخ جامع أبو سعود.

– لم تكن متعة.

– هههههههه... نعم! آه... كانت «تسابيح» و«موشحات» رمضان يا ابن اللئيمة!

– لا... كانت ثأرًا.

ارتسمت علامات الجدية على وجه سعيد... اقترب إليه مستغربًا. مال على أذنه موشوشًا:

– تثأر؟... تثأر مِنْ مَنْ؟ قلْ لي وسرُّكَ في بئر!

– من البلد كلها.

– ما علاقة البلد بالعمدة؟!

– طبعًا هو «البلد» في رمزيته.

– يابني... والنعمة... والنعمة الشريفة... «دي نعمة»... اسمع النصيحة من أخيك... لا تركل النعمة بهبلك.

سحب سعيد الصعيدي نفسا عميقًا من سيجارة محشوة بالحشيش، وكأنه يفرغ فيها غيظه من عفة ممدوح المصطنعة:

– تعرف؟! كثير من شباب البلد عندنا يتفحشون في الغلمان والبهائم والمواشي والطيور ولم يعتقوا حتى الكلاب!!

هدوء ممدوح وصمته المستفز، ينفخ في موقد نار الغيظ المتقد في صدر الصعيدي المعبأ بالدخان المميت، فيوغل أكثر فأكثر في وحل الكلام الفاحش:

- عارف عم عبد الله بتاع الكلاب؟!، ضبطوه مرة يتفحش بكلبة «أرمنت» تهوس، حملوه وألقوا به في الترعة لتخليصه منها. ركض بعدها واغتسل من الجنابة في «كنيف» الجامع، ولما فرغ من الغسل، دلف إلى غرفة النعش وصلى ركعتين سُنة دخول المسجد !

الدنيا سهلة يا ابن المجنونة... وباب التوبة مفتوح ليلاً ونهارًا.

أشاح ممدوح بوجهه بعيدًا عنه عابسًا. أدار ظهره، مستقبلاً بحر مويس يجري من تحت الكافتيريا صامتًا موحشًا ومخيفًا، مسترخيًا بدخان الحشيش، متلصصًا على أصوات الغنج والتأوهات والضحكات الخليعة والكلمات البذيئة والنابية.

(٣٢)

ذات يوم، قرر ممدوح طرق باب مكتب د. حاتم بكلية العلوم، لعل وعسى، وكانت المفاجأة أكبر مما يتوقعها: أستاذه بلحمه وشحمه رابضًا على مكتبه وفي يده فنجان القهوة وبين شفتيه سيجارته «البلومنت» المفضلة.

نهض إليه وتعانقا، وتلاشت المسافة بين الطالب وأستاذه... إنه تاريخ أكبر من المكانة الاجتماعية والمنزلة العلمية أو المهنية: نفيشة والتقفيصة وكلية العلوم.

- لِمَ اعتقلوك؟!

- شبهة انتمائي للتنظيم الشيوعي.

- ألست شيوعيًا؟!

- ظنوا ذلك... من كثرة استشهاداتي بماركس في جلساتي مع زملائي في القسم، ولأني أقمت ودرست سنوات في الاتحاد السوفيتي وتخرجت في جامعة «سانت بطرسبورغ».

- ألم تشارك في المظاهرات في القاهرة؟

- عندما ألقوا القبض عليَّ كنت في شقة أختي ببورسعيد. دخلها عشرات من المخبرين وأمناء الشرطة والضباط... أقلتني سيارة الشرطة إلى قسم الحدائق، ومنه إلى عنبر التأديب بسجن طرة وأودعوني في الزنزانة رقم (٧) مظلمة وكئيبة حُبست فيها انفراديًا لـ ٤٥ يومًا.

سكت د. حاتم قليلاً... ثم باغت ممدوح بالسؤال:

– تعرف ما هي الزنزانة رقم ٧ في سجن طرة العتيد؟

ردَّ ضاحكًا:

– لا... لست سوابق ولا رد سجون «مثل ناس» يا دكتور حاتم! هههههه

– هههههه... إنها أشهر زنزانة في طرة... لأنها هي التي حُبس فيها قبل ١٠٠ عام الزعيم أحمد عرابي باشا قائد الثورة العرابية.

– عرفت أن المحكمة برأت جميع المتهمين.

– نعم القاضي الجليل المستشار حكيم منير صليب.

– يا ربي... قاض مسيحي؟!

– أنت تسأل مستغربًا، لأنك في قرارة نفسك تأثرت بغوغائية المتطرفين الذين أطلق سراحهم السادات من السجون.

– عندك حق يا دكتور. هذا صحيح. لي زملاء منهم فرقوا بيني وبين صديقي الطيب «فريد قمصان» في قسم الكيمياء.

– قبل أن أنسى... ترافع أمام المحكمة عنا جميعًا: «عصمت سيف الدولة، ومحمد ممتاز نصار، ونبيل الهلالى، وعبد الرؤوف على، وصلاح عبد المجيد صالح».

– يا لقسوة التجربة.

– نعم صحيح بالنسبة لي ولأمثالي... ولكن بالنسبة للعدالة... كانت بشارة بأن «الخير» لم ينقطع بعد عن البلد.

– لكن هل ثمة شهادة ضمان لهذا الملاذ الأخير... لأن يبقى عفيًّا لحماية المستضعفين؟

حدَّق في ممدوح بنظرات مضطربة، لا ينقصها الصراحة بعدم اليقين، ولكنه أفلت منها برد حذر:

- تفاءلوا بالخير تجدوه.

(٣٣)

يوم ٢١ مايو ١٩٧٨، توجَّه ممدوح بصُحبة صديقه محمد أبو كرم، إلى الوحدة الصحية الوحيدة بالقرية، للإدلاء بأصواتهما، في الاستفتاء على ما أطلق عليه الرئيس «مبادئ حماية الجبهة الداخلية».

طوال الليل، تبادلا النقاش بشأن المبادئ السبعة التي دعا السادات المصريين إلى الاستفتاء عليها، خلص ممدوح ومحمد أبو كرم، إلى أن أخطرها ثلاث بنود مفصلة على مقاس رغبة الرئيس، في حرمان فئات بعينها من العمل السياسي، كان على رأسها الباشا فؤاد سراج الدين لقطع الطريق عن إعادة إحياء حزب الوفد القديم.

في الطريق كانا قد تعاهدا على التصويت بـ«لا» أيًّا ما كان الأمر.

استقبلهما على بعد خطوات من باب لجنة التصويت، ثلاث رجال شداد غلاظ، بدوا من هيئتهم ـ الجلباب والبالطو ـ أنهم مخبرون، أحاطوا بهما ولم ينبسوا بكلمة. انتظر ممدوح ومحمد أبو كرم بعض الوقت، لعلهم ينصرفون خارج الستارة التي وضعت «عيرة».

أمسكا بالقلم. ترددا. نظرا بعضهما إلى بعض «ماذا سنفعل؟!». لم يمهلهما المخبرون طويلاً، شخط أحدهم

فيهما بصوت خشن وقال بحدة لا تخلو من تحذير:
– وقع بـ«صح» هنا.وأشار المخبر إلى الدائرة الحمراء «موافق».
وإلا البوكس ينتظركما خارج اللجنة.

لم يترددا... وضعا علامة «صح» على «موافق»... وانصرفا يلتفتان خلفهما وهما يرتعدان من الخوف.

يوم ٢٣ مايو ١٩٧٨ أعلنت الجرائد نتيجة الاستفتاء: ٩٨٪ وأكثر قليلاً قالوا نعم!

بعد تسعة أيام من الاستفتاء ـ ٣٠ مايو ـ حشد السادات ٢٢٠ صحفيًا وإعلاميًا يمثلون صُحفًا ووكالات أنباء عالمية، للرد على الانتقادات الدولية الواسعة للاستفتاء... وعلى مدى ساعتين شتم فيهما الجميع: اليسار وصحيفته «الأهالي» والاتحاد السوفيتي والقذافي وإذاعة لندن.

بعد الساعة السابعة ليلاً في كلية العلوم، لمح ممدوح أستاذه واقفًا أمام المعمل، كان قد فرغ ممدوح لتوه من «سيكشن» في الكيمياء التحليلية. أقبل عليه متلهفا:

– يبدو أن أمي «زهيرة» دعت لي الليلة.

– لِمَ؟! (مبتسمًا)

– كنت بحاجة إليك يا دكتور حاتم.

– سياسة أم Chemistry Quantum؟

– سيقتلني الغيظ!

– ممن؟!

– نتيجة الاستفتاء... ٩٨٪ قالوا نعم! مفيش حياء والله.

– هههههه عادي، هذا هو حال الدول «الهجينة».

– يعني إيه هجينة؟! مش فاهم!

– يعني جِلدها «ديمقراطي»، وعقلها «ديكتاتوري».

– كل مرة أجد عندك ما يخفف عني بلاوي... إلا هذه المرة يا دكتور!

– شوف باختصار شديد: قرأت مرة أقوالاً للزعيم الروسي ستالين من بينها «من يصوتون في الانتخابات لا يقررون شيئًا، أما من يفرزون الأصوات فيقررون كل شيء»!... هذه هي القاعدة التي تجري عليها الانتخابات في الدول «الهجينة»... هلا فهمت الآن؟

– يا للمصادفة!.. أنا اليوم معزوم لمشاهدة فيلم في سينما «سلمى» آخر حفلة من ٩ إلى ١٢ ليلاً.

– أي فيلم؟

– All the President,s Men.

– جميل... فيلم سياسي أمريكي رائع، قرأت عنه في الصحف أخرجه «آلان جاي باكولا» ومن تأليف «وليام غولدمان». يوثِّق أحداث طرد الرئيس ريتشارد نيكسون من الرئاسة بعد فضيحة «ووترجيت».

– طرد الرئيس؟! والله بشرة خيريا دكتور.

– هههههه من فمك لباب السماء.

(٣٤)

تعلَّق ممدوح بزميلته «ليلى عبد المجيد»، في قسم البيولوجي، كان لا يرى هو وزملاؤه، زميلاته طالبات قسم الكيمياء «إناثًا»، بل مسترجلات خشنات لا يختلفن عنهم في شيء.

لم يكن من بينهن إلا «انتصار»، بنوتة بضة حلوة، تشبه القمر ليلة اكتماله، من «بلبيس» تنطق السين «ثاء»، تنطقها برقة ودلال، أحالتها من «عيب» إلى «جمال» مضاف إلى جمالها الرباني... أحبَّت زميلها «وهبي» الفلسطيني، رزقه الله، كل شيء إلا الوسامة، فيما زهدت العشرات من المصريين، ذابت نعالهم من الجري وراء التودد إليها، وجميعهم أكثر منه وسامة وأناقة.

ذات مرة استوقفها ممدوح وسألها وقد أصابته الغيرة بمسّ من الغيظ:

– لِمَ «وهبي» بالذات... وهو أقلنا وسامة.

– صحيح، ليس وسيمًا ولكنه جذَّاب.

نحتت الكلمة الأخيرة «جذَّاب» أخدودًا في وعي ممدوح، ظلَّ محتفظًا بحفرته متغطرسة في وجه الزمن والعمر، يتعثر فيها كلما شاهد عاشقين يشبهان «انتصار المصرية ووهبي الفلسطيني». ولم يفهم مغزى ما قالته «انتصار» إلا بعدها بسنوات طويلة، عندما قرأ لأول مرة عن مصطلح «الكاريزما» وعرف أصلها اليوناني بمعنى «النعمة أو الهبة الإلهية» التي تجعل المرء مُفضلاً لجاذبيته وليس لوسامته.

وجد ممدوح ضالته في «ليلى»، بيضاء. شقية. خفيفة الظل. ضحكتها مثل رنّة الفضة. طلاء محافظ من الخارج، والداخل مبطن بخلاعة وغنج، تحل من على حبل المشنقة. مغرورة متعالية، لكن ممدوح عيناه تشبهان عيني أبيه «خضراوان» وشعره ذهبي مسدول، وكم أكل فوق ما تتسع بطنه، من عناقيد عنب بنات وجهاء قريته، ثأرًا لنفسه من تعاليهم عليه كغريب مهاجر، وابن «أفندي» فقير على قد حاله.

عرف أنها ابنة طبيب أمراض نفسية وعصبية كبير، «دلوعة بابا» لم ينجب غيرها، فتاة أحلام شباب نخبة المجتمع، وكلما زاد الطلب عليها، علت قامتها وطال عنقها استعلاءً وغرورًا.

يتحلى ممدوح بالصبر، على «فريسته»... يثق في لياقته. يجيد إلانة الحديد، يفتله بيده بتؤدة وتأن وعلى مهل. وإخضاع الأعناق المتعالية.

لاحظت بأحاسيس الأنثى اهتمامه بها، وملاحقته لها بنظراته داخل كافتيريا الجامعة. بادلته نظرات ـ في البداية ـ لا معنى لها، ثم باتت محملة بالرسائل والمعاني المثيرة لشهيته، وبشذى الرغبة في الكلام:

– لِمَ لا يتكلم؟!

اصطدم بجسدها صُدفة، حين همَّت بالخروج من باب كافتيريا صغيرة بالدور الثالث، لحظة دخوله مندفعًا إليها... ابتسما بسعادة واعتذر لها بأدب:

– لا عليك.

نادى على النادل:

– شوف الآنسة ليلي تشرب إيه.

– مرسيه (قالتها بالفرنسية).

أشارت إليه بيدها: «باي». وهمَّت بالانصراف.

نادى عليها:

– ممكن دقائق؟!

– أنت إيه حكايتك؟!... تتعقبني في غدوي ورواحي!

– أنا... أنا... أنا...

قاطعته بحدة:

– أنت إيه؟!

ارتبك ولم يفلت من مأزق التردد إلا بتوريط نفسه:

– أريد الزواج منكِ!

– أنت يا بني في البكالوريوس وأنا في ثانية بيولوجي... من المبكر الكلام في الزواج.

– سأطلبك للزواج بعد التخرج.

– مجنون!... باي.

احتضنت مذكراتها بحنان، ومالت رأسها بدلع. ودوت ضحكتها في الممر الخالي وانصرفت «واثقة الخطوة تمشي ملكا».

(٣٥)

ممدوح يعشق فصل الربيع. يعتقد أن البنات، مثل الورد، يبقين خاملات في براعمها، تحت إبط الساق، حتى يطرق الربيع نوافذها المغلقة، تفتحها وتطل منها، على قمم الشجر، مثل الملكات مرفوفة على رقصات وغناء الوصيفات. وكثيرًا ما كان يغمغم بأغنية محمد فوزي:

الورد له في روايحه لغات
تجمع بين النار والجنة
حكم الزهور زي الستات
لكل لون معنى ومغنى

كانت ليلى تبدو في عينية أجمل نساء العالم في الربيع، موهوبة في اختيار ملابسها، التي تشبه تناسق بوكيهات الورد. وعينان سوداوان تلمعان بالشبق، تحكم وثاقها على معصمي ممدوح، الذي لا يبحث عن الحب، وإنما عن شيء آخر، تختلط فيه عقده النفسية، مع أصوات رغبات تدق مثل الطبل، في قلبه المريض بالنزوات العابرة.

بمُضي الوقت اعتادت عليه ليلى، لا ترفض مواعدته، لقاءات علانية، على سور بحر «مويس» أمام الجامعة. يجلسان بالساعات، ولقاءات قليلة في كافتيريا، مفتوحة تتوسط شارع «فاروق». كان الربيع يصدر بداخله، نداءً غامضًا يلح عليه، بطلب مواعدتها أكثر من مرة في الأسبوع.

طلب لها ليمونًا، وله فنجانًا من القهوة... نادى على النادل:
– الحساب؟
– ثلاث جنيهات.

ناوله المبلغ... فأطرق النادل هنيهة، يتردد بين الوقوف والانصراف، كأنه ينتظر شيئًا منه. وعندما طال وقوفه انصرف وسيماء التذمر وكسر الخاطر على وجهه.

رمقته ليلى بنظرة استنكار، وهي تلتقط حقيبة يدها بعصبية من على الطاولة:
– كان ينتظر بقشيشًا.
– لم أنتبه لرغبته تلك. ولم أفعلها من قبل!

ضحكت باستهزاء فج:
– هههههه... لأنك «فلاح» قادم من وراء الغيط!
– لست فلاحًا...صحيح أنني أعيش في قرية، ولكن أبي موظف بسيط لم يفلح الأرض في حياته... و ليس لي خبرة سابقة في استضافة أحد على كافتيريا خاصة.

هزَّتصرفه مع النادل ثقتها الغضة في أن يكون زوجًا مناسبًا لها. ولكنه شاب وسيم، مع قليل من التدريب على «الإتيكيت» واختيار ملابس مناسبة، قد يكون محل إبهار لأهلها والتباهي به أمام الحسود من بنات الكلية والعائلة:
– الولد مثل القمر... خسارة يكون لفتاة غيري.

بمُضي الأيام والشهور، اعتادت على وجوده في حياتها بحلوه ومُره. يضرب حُبه بعصاه، في قلبها الظامئ، فينبجس الشوق عيونًا وينابيع.

بلغ مبلغ السفر إلى قريته، تسأل عنه عندما غاب عنها أسبوعًا، لا تعرف عنه شيئًا.

ضج الطريق من أول الأسفلت إلى ما قبل بيته بقليل، بالصِّبية والشباب يركضون متحلقين حولها، وكلٌ يُبدى حماسه في اصطحابها إلى بيت ممدوح. وكان يومًا على أبيه وشقيقاته الثلاث عظيمًا.

جلس أبوه على كنبته في الصالة مطرقًا الرأس، وارتسمت على وجهه علامات القلق على ابنه مع سيماء الانتشاء من المفاجأة، يخفي في نفسه ما لا يُبديه لولده:

– الولد طلع «خلبوص» كبير!

نادى على زوجته مفتعلاً الضيق مما حدث:

– أم ممدوح: ما رأيك؟!

– طالع مثل أبيه... إذا نسيت اللي جرى نجيب الدفاتر تتقرى!

خرج ممدوح من غرفته مقاطعًا التلاسن الخشن بين أمه وأبيه:

– لا تقلق يا أبي... زميلة لي وصلها نبأ أني مريض.

– هههه (ساخرًا)... منذ متى يتزاور البنات والشباب في البيوت؟!

– أنا لست مسؤولاً عن تصرفها اليوم.

سكت أبوه... وكعادتها انصرفت أمه غير مهتمة... تاريخ طويل من الإهمال وعدم الاهتمام.

في الليل، استقبل ممدوح صهريج المياه المطل على «جرن» أبو سعود، يذكره بـ«التقفيصة» في «نفيشة» مرتع طفولته وصباه... استلقى على كوم قش، متروك تحتها، منتشيًا سعيدًا من صنيع «ليلى»... لم يشغله من زيارتها «توثيق» حبها له، وإنما حسبة أخرى تُمسك بتلابيب سيرته مع الفقر والغنى والتعالي الجهوي والقمع الطبقي وإذلاله تحت قبضة كل من هو من سلالة «الإوزة» المدللة اجتماعيًا:

- نضجت الثمرة وحان وقت قطافها... لقد جاءتني المدينة المتعالية مرغمة.

(٣٦)

تخرَّج ممدوح من الجامعة، بتفوق، وحصل على شهادة البكالوريوس، ويأمل في التعيين معيدًا، أو الحصول على عقد عمل بشركة بترول بدولة خليجية أو في ليبيا، وحان وقت الوفاء بوعده: طلب يد «ليلى» من أبيها.

التقيا للاحتفال بنجاحه وترتيبه من أوائل الدفعة... وبنجاحها هي أيضًا... أقبلت عليه وهي تقفز بشقاوتها المعهودة مثل الطفلة البريئة، وهو عابس الوجه، صامت طوال الوقت:

– إيه... وحدووه.

– لا إله إلا الله.

انخرطت في الضحك بخفة ظلها العذبة. تثرثر. تشاكسه لتنفرج أساريره المتجهمة لسبب هي لا تعلمه... قاطعها:

– ليلى. قد وعدتك بالزواج وقد حان وقت الوفاء بوعدي.

أضاء وجهها مثل شمس الشروق بعد الفجر:

– نعم... يا حبيبي.

أطرق برأسه إلى الأرض ولم يقو على النظر إليها خجلاً:

– أنتِ فتاة جميلة وبنت ناس وألف من يتمناكِ أفضل مني قيمة وقامة.

أخرستها الصدمة... وكأنها أصيبت بالتهتهة:

– وأنت؟!

– أنا لست للزواج ولا للحب!

– ألم تُحبني؟!

– لم أقلها لك... ولا مرة واحدة!

– ولِمَ؟!

– أنا ـ أصلاً ـ لا أعرف أحب!

اغرورقت عيناها السوداوان بالدموع، وتساقط المطر الأسود من عينيها زخات، وأطرقت تنصت إليه وقد أفقدتها المفاجأة القدرة على استدعاء صلفها المعهود...

واصل كلامه:

– ليلى... الرجل ـ أصلاً ـ لا يعرف الحب!

تجاهلته ولم ترد.

– الرجل يعرف فقط كيف يصل إلى ما يريده من المرأة!

– تعني لا يجمع الحب بين الأزواج؟

– نعم... ما يجمعهما هي «المودة والرحمة». الحب أكذوبة.

– وأنت؟! ماذا كنت تريد الوصول إليه معي؟!

– الانتقام!

– ممن؟!.. مني أنا؟!

– من أهل البندر!

– وأنا ذنبي إيه؟!

– ذنبك صلفك وغرورك، كانا يشبهان صلف المدينة التي أذلتني وغرورها.

– أنت مجنون!!

– نعم مجنون حقيقي ومريض أيضًا.

– يتعين عليك عرض نفسك على طبيب «مجانين»!

– عندك حق... ولولا الخجل لطلبت من أبيك علاجي في أي مصحة نفسية يعرفها... أنا والله جاد فيما أقول. ليس من مصلحتك الاقتران بمريض ومجنون بل وحقير، مثلي.

ثم استأذن مودِّعًا، منكس الرأس، قافلاً عائدًا إلى قريته مشيًا على الأقدام... يغالب إحساسًا غامضًا بالحزن:

– علام الحزن يا ابن زهيرة؟! أتحبها حقًا؟! لا لا، أنا لا أعرف الحب، ولا أعرف كيف أحب. أنا مثل كل رجل يعرف فقط بلوغ غايته من المرأة.

– لا تعاند... لا تكابر... قد تكون قد تعلَّقت بها...

– ربما! لست متأكدًا... ولكن ما الفائدة. فقد خسرتها للأبد. كانت مثل المدينة متعالية متغطرسة... كانت تراني ريفيًا ساذجًا... كانت تراني من فوق... فأبدو لها «لا شيء». كنت بالنسبة لها محض رهان لا ضمان له: قد أصلح... قد!.. والمرجح عندها أني «قد لا أصلح»... أحبتني «على حرف»... وأنا المريض بإرث الإحساس بالدونية والرغبة في الانتقام من كل من له رمزية التعالي والتفوق الجهوي والاجتماعي. قد أكون حزينًا...لا أعرف... فأنا لست لحمًا ودمًا وحسب، أنا في النهاية إنسان... لكني أشعر بالراحة أكبر من شعوري بالحزن: قضيت حاجتي... وتخففت من عبء علاقة لا مستقبل لها إلا الإهانة والانقياد: الطرف الأقوى في النهاية يفرض قانونه.

(٣٧)

عندما تلقى ممدوح، إخطارًا بتعيينه معيدًا في قسم الكيمياء بجامعة الزقازيق، ظل يقفزمن الفرحة، وترتطم قدماه بأرضية الصالة بهوس، وكأنه قد أصابه مسٌّ من الجنون.

احتضنه أبوه وقبَّله، وذكّره أيام كان طفلاً في «نفيشة»، عندما وعده، بأن يصنع منه «عَلَمًا»، تُضْرَبُ إليه أكْباد الإبل. وأطلقت شقيقاته الزغاريد، وقدمنَّ الشربات إلى الجيران، فيما استقبلت أُمه الخبر السعيد كعادتها، وهي مثل ماء «الزير» البارد.

ارتدى أحسن ما عنده، وتحسَّس إخطار التعيين في حقيبته. استقل الأتوبيس من على «المعاهدة / المحطة» صباحًا، وهو يرى العالم بعيون وألوان وعبق ونسائم مختلفة، آملاً ـ وليس كل ما يأمله المرء يدركه ـ أن تطوي صفحات ماضيه من الشقاء والشقاوة وظلامية الكراهية والثأر.

مدَّ يده بالإخطار للموظف المختص في شؤون أعضاء هيئة التدريس، وقبل أن يطلع على ما فيه، باغته بما خطف قلبه وفرحته وألقى بهما في بحر «مويس» المقابل:

– نأسف يا ابني... تم تعليق التعيين في قسم الكيمياء.

دارت الدنيا بممدوح وكاد يسقط مغشيًا عليه:

– لِمَ؟!

– لا توجد درجات مالية!

بلع ريقه وردَّ متهكمًا:

– يعني، اكتشفوا الآن فقط عدم وجود درجات مالية شاغرة؟!

– راجع مجلس الكلية.

لم يتردد في زيارة د. حاتم عبد الحفيظ في مكتبه لعله يجد عنده تفسيرًا.

امتقع وجهه لحظة دخوله عليه، وهو يشير إليه بيده (اجلس)

– مجلس القسم ومن بعده مجلس الكلية وافقا على تعيينك، وصدر قرار بذلك من مكتب رئيس الجامعة

ابتسم ممدوح ساخرًا:

– لِمَ أُلغي القرار إذن؟!

– استبعدوك لصالح ابنة أستاذ في القسم ليخلو لها المكان وتعيينها العام القادم.

– والحل؟

– من حقك مقاضاة الجامعة، أمام القضاء الإداري، لأنه حتى في حال عدم وجود درجة مالية، يتعين على شؤون أعضاء هيئة التدريس مخاطبة التنظيم والإدارة لتوفير الدرجة.

– هذا رأيك؟!

– لا بالطبع... أمس، نُشر إعلان بحاجة جامعة «عين شمس» لمعيدين في قسم الكيمياء، الشروط تنطبق عليك... تقدم بملفك، وإن شاء الله تجد ما يسرك.

(٣٨)

أخيرًا تحقق له مراده. وعُيِّن معيدًا...

لم تفت مشقة سفره اليومي ذهابًا وإيابًا، من الزقازيق إلى القاهرة، في عضد فرحته وحماسه، حتى آخر «سيكشن» في معامل الكلية.

لا يشعر بالسأم ولا بالتعب، من طول وقوفه في المعامل: يشرح التجارب نظريًا، ويتفقد إجراءها بين طلابه عمليًا، ثم يختتم بتصحيح النتائج.

في جامعة عين شمس، الفتيات جمالهن، مثل حوريات الجنة، أكثر تحررًا، وملابسهن أكثر جرأة من بنات الزقازيق، يعرفن كيف يخترن مكياجهن، تنورات الـ«ميني جيب»، والبلوزات الشيفون، تظهر حملات الصدر من تحتها، فسيفساء واسعة، تأخذ العقل، وتبلل وديان الحرمان الجافة.

نادت عليه وهو يتجاذب أطراف الحديث مع أمين المعمل:

- تسمح لي يا دكتور؟

جاءه صوتها ناعمًا حريريًا مرفوفًا على رقة لم يألفها من قبل:

- مررت carbon dioxide (ثاني أكسيد الكربون) على lime water (ماء الجير) فظل على حاله لم يتغير. فما السبب؟!

اتسعت عيناه وهو يتأملها مطرقا، فقد أخذه جمالها المفاجئ، كل مأخذ مرددا بينه وبين نفسه:

– سبحان الله يخلق من القمر أربعين.

استرد وعيه الذي غاب للحظات في شروده اللذيذ.

– تعالي معي.

عاد إلى السبورة وشرح لها المعادلة:

– إذا مررنا ثاني أكسيد الكربون CO2 (g) على ماء الجير Ca(OH)2 (aq) يتكون كربونات كالسيوم CaCO3 (s) لا تذوب في الماء... فتظهر على شكل «تعكير» في المياه. وكتب لها المعادلة الكيميائية:

$$Ca(OH)2(aq) + CO2(g) \rightarrow CaCO3(s) + H2O(l)$$

ثم استأنف تكملة تفسيره للخطأ الذي وقع منها في التجربة:

– إذا استمر إمرار الغاز وبسرعة سيختفي التعكير لتفاعل كربونات الكالسيوم CaCO3 (s) مع غاز ثاني أكسيد الكربون CO2 (g) وتحوله إلى Calcium bicarbonate ca (HCO3)2 التي تذوب في الماء فتختفي. من أجل ذلك ظل ماء الجير على حاله صافيًا نسبيًا.

شكرته بصلف... واستدارت بدلال إلى طاولتها لاستئناف التجربة وتصحيح الخطأ، وهو يتعقبها بعينين جائعتين.

ابتسم أمين المعمل الذي راقب عيني ممدوح اللتين زاغتا على البنت... ثم باغته بالمفاجأة:

– على فكرة د. ممدوح... الطالبة مطلقة. ووحيدة أبيها ضابط شرطة توفي بعد وفاة زوجته بشهرين، وتقيم بمفردها في شقة المرحوم في ميدان سفنكس بمصر الجديدة.

شرد ممدوح قليلاً، ولم ينبس... فيما كان يتعقب في صمته كلمتين بقي طنينهما يدويان مثل الصدى في ذهنه: «مطلقة» و«ضابط شرطة»... استدعى في الحال مشهد اعتداء ضابط الدورية على شيخ الخفر صلاح البنا في قريته، ثم راح يردد في نفسه وكأنه يتوعدها: «جاءك الموت يا تارك الصلاة».

في قطار العودة من القاهرة إلى الزقازيق، لم يشغله شيء غير وضع الخطط للإيقاع بفريسته الجديدة:

– الزن على «الودان/الأذن» أمرٌ من السحر! كثيرًا ما كانت أمي زهيرة تقول « القريب من الأُذُن أصدق ولو كان كاذبًا».

كان ممدوح لوسامته الطاغية، محل انتباه فتيات الكلية، يتذرع بعضهن الأسباب، للفوز ولو لبضع دقائق بالكلام معه.

في «السيكشن» لا يصرف نظره عن «فريسته» المطلقة. لاحظ ادعاءها المتكرر بعدم الفهم، لتسأله. تنصت إليه. وهي شاردة، تتأمل عينيه الخضراوين، تهز رأسها (تمام)، وهي في «دنيا ثانية». تلتفت يمنة ويسرة بلا سبب، لينزلق شعرها المسدول على وجهها، فتبدو في عين «الذئب» كوجه «غانية» يضج شبقًا واشتهاءً.

بمُضي الوقت باتت جليسته في حضورها وغيابها، يتساءل في نفسه مندهشًا عن سبب طلاقها:

– كيف طلَّق الصياد الغبي عصفوره الكناري؟! من ذا الذي يستطيع هجر مثلها في المضاجع؟!

تداهمه الأسئلة القلقة:

– ماذا أريد منها؟ أأريد تدفئة فراشي البارد، بوثيقة رسمية؟ أم

بورقة يحررها محامي عقود عرفية؟ أم باستدراج العصفور إلى عشي، لأبلِّل بمائي الحرام عشبه الجاف، ونلتقي عند المنطقة الرمادية، بين الكفر والإيمان؟ أم هي فرصة للثأر من ضابط الدورية الذي اعتدى على شيخ الخفر صلاح البنا؟

ولكن، ما ذنبها هي؟!

يضحك ساخرًا من نفسه:

– وما هو ذنب ابنة الخولي؟، وليلى عبد المجيد؟ ولِمَ أسأل هذه المرة؟! مذ متى وضميري في حوصلة طير خضراء، يحط به، حيث يغرر بي شيطاني؟! ولكنها حيلتي للهروب، من هذا الشعور الغامض الذي يلاحقني مذ توطدت علاقتي بها.

يقولون «مش كل مرة تسلم الجرة»... وهذه المرة ليست ككل مرة يا ممدوح... يبدو أنك «وقعت» في شرك بنت مصر الجديدة.

(٣٩)

ليست المُطلقَة أول امرأة، ولن تكون بالتأكيد آخرهن، ممدوح الوسيم يبدِّلهن كما يبدل رابطة عنقه، كان واثقًا من طبع قلبه المطيع، لا يعصي له أمرًا، لم يزعزع ثقته شكٌ، في أنها ستغادر عندما يريد هو، وليس لها من الأمر، إلا أن تجمع أوراقها وترحل.

بين جنبيه طفل مُدلَّل، عندما يملّ لعبته أو بعدما يفرغ طاقة الثأر المريض منها، لا يحتفظ بها في خزانته، وإنما يتركها حِطامًا مبعثرًا، يستعصى على رده إلى هيئته الأولى، ليلهو به تباعًا أطفال آخرون.

لم يكن متأكدًا أيهما كان «الفريسة» ـ هي أم هو ـ وأيهما كان «الصياد»، كلاهما كان يتعقب الآخر وداخله حفرة عميقة يختبئ فيها ثعلبٌ جائعٌ.

ثرثارة ولكنه لا يمل حديثها، كلما شاء ممدوح أن يمخر بقاربه بعيدًا عن ضغوط عمله الشاق، كان يتحدثان معًا بالساعات في كل ما هو تافه: ضحكتها تحاكي رنة الفضة، صوتها ناعم مثل مواء القطط، مثخن بالخضوع كأنها نفضت لتوّها شيئًا «ما» على فراش المتعة.

قالت له مرة، إن صديقات لها، يُصبن بالهلع غيرةً على أزواجهن، حال طلبت إحداهن على الهاتف، وردَّ عليها الزوج، وسمع صوتها الذي يخرُّ له أعتى الرجال هدًّا.

مهذبة جدًا، ولكنها تخفي وراء إتيكيت أولاد أحياء القاهرة الراقية، جرأة تظهرها بتردد أحيانًا، ويراها تلمع في عيونها الوقحة أحيانًا أخرى. تتصنع الغضب حال سمعت من ممدوح كلمة نابية، ثم تلح على سماعها إذا كانت، تحمل مطرًا باردًا، يرطب جفاف الكثبان الظامئة تحت سفح جبلها الناتئ.

وجدت في ممدوح رجلاً حنونًا ومجنونًا، لا تعوزه الجرأة والمهارة، في إشباع الشبق المختبئ، تحت هذه البراءة المصطنعة، دون أن يجرحها بتعرية طفولتها الكاذبة.

أحبّت فيه هذه الطريقة، التي فهمتها بسذاجة بأنه مجنون ولكنه قروي «غلبان» صدَق بأن الصورة ليست مزيفة.

لاحظ شغفها بسماع ما يتعمد قصّه عليها من مغامرات، أيام نزقه في متاهة الرغائب المجنونة، قليلها صحيح وأكثرها أكاذيب، يقفز على المشاهد التي يضرب عندها خيمته، ويغرز بعدها بيرقه في عمق مغارات بين جبلين أبيضين، متوقعًا أنها ستلهث بشغف في طلب التفاصيل، وكأنها بالونات اختبار أطلقها فوق صحرائها العطشى.

يأتي رد فعلها كما توقع، يمضي ممدوح في حبك الأكذوبة تلو الأخرى، فهي شغوفة، ومستسلمة، يشعر برعشة جسدها مثل الشاة الذبيحة، ينتفض بجواره، يغمد وهجه في شراييه، تلهث أنفاسه، كأنه يتسلق جبلاً حاملاً ثقلاً على كتفيه، يسمع خفقان قلبه في قعر أذنه الوسطى. تمدّ يدها الدافئة، لتقبض على يده بقوة، تسأله بخضوع يفلق الحجر: ثم ماذا؟! يهمس في أذنها، بكل ما يشق الجسر، ويدفع بالماء البارد، إلى

أرضها الشراقي.

يقضيان الساعات في الثرثرة، تتشقق السدود الصلدة، أمام غواية الحنان المتدفق، يسقي ممدوح بكلامه الساخن، جسدها الظامئ.

وذات مرة تفلتت المدفأة من مقبض التحكم، و «ولعت الدنيا»... يتسور الكلام كل الحدود الممنوعة، ترتقي فريسته المطلقة، لاهثة لتتجاوز العتبة، ثم تسقط منتشية في رحيق الرعشة الأخيرة.

عندما يعود لبلدته... يغتسل ويلحق بصلاة الفجر جماعة في مسجد أبو سعود:

- هذه آخر مرة!

وفي الكلية تقابله عابسة متجهمة، تدين صنيعه معها بقسوة:

- خاف ربنا!

ولكن الضمير يحتاج إلى نواطير تتبادل عليه الحراسة، إذا نامت عاث في قلب صاحبه فسادًا!

بمضي الوقت تبلد الإحساس بالذنب، وغفت نواطير الضمير عن ثعالبها، فبات ممدوح ليلته على فراشها، «لولا أن رأى برهان ربه» ، «وقدت قميصه من دبر»!

لاحقته عند الباب وبصوت خفيض خشية الفضيحة:

- أكرهك... أكرهك... أكرهك

فتح باب الشقة بحرص... ودلف منها إلى الشارع ولم يعقب، هائمًا على وجهه، إلى أن تنفس الصبح.

(٤٠)

أقبلت عليه شاحبة الوجه، كأنها فقدت نصف وزنها في ليلة واحدة، عيناها منتفختان حزينتان، تشعر بأنه لم يخذلها وحسب ولكن كسر صلفها وتعاليها، ليلة أمس، حين راودته عن نفسه: لم يرو عطشها وأذل كبرياءها... وخرج منتصرا – ولأول مرة ـ على شهوة نفسه... وكأنه كان يكفيه فقط توسلاتها إليه، وإلحاحها عليه، أن يضرب خيمته في سفح جبلها، ويدلي دلوه في بئرها العميق، يشرب حيث يشاء لبنا وعسلا.

إذ ذاك... استولى عليه شعور غامض بالخوف، وتهديد حقيقي بالخطر، فهي تختلف عن الأخريات، اللاتي أمطر سحائبه في حلوقهن العطشى، إنها طالبة لديه، وليس بوسعه التنبؤ برد فعلها، حال قرر إنهاء العلاقة:

– اسمعيني: الكلية رشحتني للسفر إلى ألمانيا لدراسة الدكتوراه في «Biochemistry»...

قالها تليينًا لما هو آت من أكاذيب تبرر له الخلاص منها.

بكت بين يديه بهيستريا وتوسلت إليه ألا يتركها:

– أنا لا أطيق العيش في الدنيا بدونك.

قال لها وهما ينتظران النادل بكافتيريا الكلية:

– لقد أصبحتِ جزءًا من هويتي.

كان يعجبها ثقافته الواسعة، وكانت لغته العالية، أداته

في إبهارها، وسحقها وتعزيز شعورها بالدونية أمامه، واستسلامها بين يديه، يقلبها كيف يشاء.

نظرت إليه مستغربة ـ فيما يبدو ـ كلمة «هويتي»... قالت:

– يعني إيه؟!

لم يمهل نفسه وقتًا، لانتقاء مرادف يفتح لها ما استشكل عليها... تأمل برهة وجهها الجميل ثم قال:

– يعني «بتِ تجري في عروقي مجرى الدم».

تهلل وجهها وعاد إليه إشراقه بعد عتمته. عاجلته بلا تردد:

– نتزوج إذن.

صمت ولم ينبس... فأعادت عليه طلبها:

– نتزوج إذن.

هزَّ رأسه آسفًا معتذرًا:

– لن ينفع.

– لِمَ؟!

– أنا هكذا... إذا نلتُ ما أريده؛ أزهده... وكل الرجال مثلي. لست بدعًا عنهم.

– ألم تحبني؟!

– لست متأكدًا... ما أثق فيه هو أني تعودت عليكِ (وأشياء أخرى).

تغيَّر لون وجهها حياءً:

– أتراني «رخيصة» بعد ما كان بيننا ليلة أمس؟!

– لا... إنها لحظة ضعف أنا وأنتِ مسؤلان عنها... كلانا كان

يخطّط لها.

التقطت حقيبة يدها من على الطاولة بعنف... ونهرته بعصبية:

- براحتك. ولكني لن أدعك قبل القصاص منك.

نظر إليها بلا اهتمام ولاذ بالصمت...

واستدارت مغادرة الكافتيريا مسرعة.

(٤١)

استأنف ممدوح لياقته النفسية، بعد تخففه من علاقة خطرة، لم يتوقع احتمالات أن يكون محل تعقب ومراقبة، من كل الذين تضرروا عاطفيًا من هذه العلاقة.

مشكلته لم تكن في المطلقة الجميلة، فهي كانت قمة جبل الثلج الطافي، فوق بركة مسكونة بالأفاعي والحيَّات، تتحين الفرص لحقن سمومها، في شرايين من فضَّل عليهن مُطلقة وتركهن لنار الحسد والغيرة، تأكل قلوبهن في صمت.

قبيل انتهاء العام الجامعي، فوجئ ممدوح بتلقيه إشعارًا، بإحالته إلى التحقيق لسماع أقواله فيما نُسِب إليه من «أعمال أخلت بواجباته الوظيفية، وتُعتبر خروجًا على مقتضياتها».

حدَّد الإشعار اسم المحقق (أستاذ بكلية الحقوق جامعة عين شمس) ويوم وساعة ومكان سماع أقواله. متضمنًا وقفه عن العمل مع خصم رُبع راتبه إلى أن ينتهي التحقيق».

كان ممدوح مغيَّبًا في عُزلته وخلوته، متنسكًا في محراب فريسته اللعوب، وهدر طاقته في إحكام تعليق أقفاله على باب قلبه «الموارب» أمامها، بعد أن افترقا... إلى أن استفاق على صفعة «الإشعار» بقبضته الغليظة.

واجهه المحقق، بأكثر من شكوى تتهمه بالتحرش، بطالبات في القسم: مراودة إحداهن «المطلقة»، لينام معها على فراشها، وادعت أخرى أنها في مرة كانت تسجل نتائج التجربة، فجاء من

خلفها وحاول ضمها إليه بطريقة غير مريحة. وزادت: في مرة اقترب مني ووضع يده على فخذي.

ابتسم ممدوح ساخرًا:

– كل هذا كنت أفعله أمام الجميع في المعمل؟!

رمقه المحقق كاظمًا غيظه:

– سألنا الطالبة... فقالت إنها لم تكن وقتها في موقع يسمح لها بالدفاع عن نفسها. وأنك كنت تختار التوقيت الذي تكون فيه الطالبة غير قادرة على مواجهتك. وأنك كنت تستغل نفوذك لتهديدهن بالتأثير على تحصيلهن الدراسي ومستقبلهن.

– وماذا أيضًا؟!

– شكوى أخرى من طالبة ادعت إنك همست في أذنها ذات مرة «اشتقت لكِ. أنتِ جميلة» وسمعتْ منك غزلاً صريحًا «شفتاكِ جميلتان».

احتدَّ ممدوح وعلا صوته:

– هذا جنون... كلها أكاذيب وادعاءات.

– من فضلك سيد ممدوح أنت في جلسة تحقيق لا ترفع صوتك والزم حدودك... على أية حال سمعنا شهادة ست طالبات أكدنَّ في شهاداتهن هذه المزاعم.

استوفى التحقيق شروطه... وبعرضه على رئيس الجامعة، قرَّر إحالته إلى مجلس تأديب، برئاسة نائب رئيس الجامعة لشئون الدراسات العليا والبحوثً. وعضوية أستاذ من كلية الحقوق، ومستشار مساعد بمجلس الدولة.

وبعد جلسات تحقيق استغرقت شهرين... أصدر مجلس التأديب قراره بفصل ممدوح من وظيفته.

عندما علم بالقرار، ابتسم ساخرًا من نفسه:

- نالت مني ابنة ضابط الشرطة المتوفي وطردتني من الجامعة بفضيحة... كما أهان ضابط الدورية عم صلاح البنا شيخ الخفر أمام أهل البلد... الحكومة هي الحكومة يا ابن زهيرة... والعين لا تعلو على الحاجب أبدًا!

وصل محطة الزقازيق عصرًا، ومنها إلى كلية العلوم ليلتقي بأستاذه حاتم عبد الحفيظ، والذي نصحه بتوكيل محام لرفع قضية على جامعة عين شمس قبل مرور ٦٠ يومًا على قرار عزله من وظيفته، وهي النصيحة التي عمل بها ممدوح في اليوم التالي من هذا اللقاء.

(٤٢)

لا يكره ممدوح فصلاً من فصول العام، مثل كراهيته لفصل الخريف، تجربته معه غير مريحة، ولا يستقبله إلا متوجسًا. قلبه عادة ـ في الخريف ـ ما يكون موصدًا على أحزان مكتومة وغامضة. كأنه يمارس مرانًا على شيء ما، عساه يكون أكثر جلدًا وصبرًا، على مفاجآت هذا الضيف الثقيل والذي لا يتوقع منه خيرًا أبدًا.

فجر يوم ١٠ سبتمبر عام ١٩٨١، طرقات قوية على باب بيتهم في قريته، فتح أبوه الباب مذعورًا، فباغته ضابط أمن دولة، بغمد فوهة مسدسه الميري في صدره:

– أين ممدوح؟

– نائم في غرفته... ماذا تريدون؟!

دفعه الضابط بغلظة إلى وسط الصالة، ودلف بعده عشرات الجنود والضباط إلى داخل البيت. فتشوا مكتب ممدوح ومكتبته. صادروا عددًا من الكتب والأوراق والكراسات دون أن يتصفحوها.

منعتهم أمه من دخول غرفة شقيقاته البنات، إلا بعد أن يؤذن لهم... قلبوا البيت رأسًا على عقب... ثم اصطحبوا ممدوح في سيارة شرطة.

في الطريق قال للضابط المكلف بالحراسة عليه:

– ما هي تُهمتي؟!

– لا أعرف. هذه أوامر الرئيس السادات!

– فخامة الرئيس بذات نفسه أمر باعتقال العبد لله؟! (قالها متهكمًا).

– لست وحدك... أكثر من ألف معتقل!

– لكن الرئيس هدم السجون.. ورأيناه في التليفزيون هو يحمل معول الهدم بنفسه!

نهره الضابط وأمره بالسكوت إلى أن يتم ترحيله إلى سجن استئناف طرة.

– نعم... نعم! سمعت أنه سجن حديث بناه السادات متأثرًا بالذوق الأمريكي في بناء السجون!

أُودِع ممدوح مع الإسلاميين والشيوعيين في سجن الاستقبال.

سأله أحد الإخوان المعتقلين:

– شيوعي أم إسلامي؟

– لا هذا ولا ذاك. ولا أعرف لِم أنا هنا الآن.

ابتسم المعتقل وداعبه:

– طالما جئت مع الإخوان فأمامك ٢٠ سنة. هههههه

سمع آخر في ركن بعيد من الزنزانة يقول:

– قانون الطوارئ تم إلغاؤه، فبأي قانون يعتقلنا السادات؟!

وتناهى إلى أذنه حديث خافت بين اثنين فهم منهما أن أحدهما معتقل مسيحي! سمع منه أن السادات اعتقل رجال دين مسيحيين، لغضبه من سوء خلق أقباط المهجر، الذين قذفوه بالبيض الفاسد والطماطم والشتائم أثناء زيارته لواشنطن.

نودي عليه في اليوم التالي لترحيله إلى سجن المرج، لحبسه مع إخوانه من المعتقلين المسيحيين، علم أن من بينهم ٢٤ قسيسًا و٨ أساقفة.

همَّ واقفًا وهو يرسم علامة الصليب على صدره سعيدًا، ثم نادى في العنبر:

- أراكم على خير... استجاب لي الرَّب، حين طلبت منه أن أحبس مع الأنبا بمرا أسقف دير الرزي.

اقترب منه معتقل وسأله قبل أن يودعه عند الباب:

- لِمَ؟!

- الأنبا بمرا، صاحب معجزات... ستجده الآن «مسلط عفاريته عليهم في المرج»!

سمع ممدوح «خناقة» بين معتقل يساري وآخر ناصري، اعترض الأخير على الأول لاستخدامه لقب «باشا» كلما نادى به على من يبدو أنه شخصية مهمة من بين المعتقلين:

- إزاي تقول له يا باشا وإنت يساري؟!

- هذا لقب تاريخي لا علاقة له بأي تصنيف طبقي، يعني تقدر تعتبره مثل مصطفى كامل باشا وأحمد عرابي باشا الذي ألَّف الشعب المصري له موالاً يقول: (يا مصر قومي من طلعة الفجر يا مصر يا عياشة وقمّري العيش ومدى إيديكي لأحمد عرابي باشا)، رغم أنه لم يكن وقتها باشا.

لم يقتنع أحد في العنبر بهذا التأصيل التاريخي ولكن انخرط الجميع بعدها في الضحك.

سمع ممدوح من أحدهم ـ بدا عليه وكأنه ذو مكانة صحفية مرموقة ـ أن رؤساء تحرير صحف، كتبوا قائمة بأسماء خصومهم من زملائهم الصحفيين، وقدموها لوزارة الداخلية لاعتقالهم بوصفهم معارضين للرئيس. وأن نائب الرئيس «محمد حسني مبارك» كان رئيس اللجنة التي أقرَّت كشوف الاعتقالات في صورتها النهائية.

ردَّ أحدهم معترضًا على هذه الرواية:

– أنا على يقين أن النبوي إسماعيل هو الذي وضع قوائم الاعتقالات بمشاورة عدد من رموز نظام السادات.

شاهد ممدوح شيوخًا تجاوزوا الستين أو يشارفون، وقد أُودعوا هذه الزنازين الموحشة والخانقة. سمع أحدهم يقول إنه مريض بالضغط والسكر والروماتيزم والربو، وإنه اُنتزع من على سريره في المستشفى.

ذات ليلة سمع ممدوح عويلاً وبكاءً صادرين من زنزانة قريبة، عرفوا بعدها أن وزيرًا سابقًا معتقلاً قد توفي، فغسلوه بالدموع وودعوه بأصوات مخشوشنة من باب الزنزانة إلى باب السجن.

وذات ضحى شاهد معتقلاً، يبدو من هيئته أنه كاتب كبير، وهو يزعق ويلقي بأمتعته في باحة السجن، معترضًا على أوامر ضابط، بتفتيشه ذاتيًا، بحثًا عن «قلم» تمَّ تهريبه بالمخالفة لتعليمات السجن، قيل إنه يكتب به الرسائل وتهريبها للخارج.

(٤٣)

في الصباح أقلَّت سيارة ترحيلات ممدوح وعددًا من المعتقلين، إلى مكتب مساعد المدعي العام الاشتراكي...

دخل وخرج الجميع، وبقي ممدوح وحيدًا، خارج المكتب منتظرًا النداء عليه. وبعدما طال الانتظار، دخل ضابط الحراسة المرافق لهم مكتب المحقق، ثم خرج متجهمًا، متجهًا صوب ممدوح، ليسأله مستغربًا:

- لِمَ أنت هنا الآن؟!

ردَّ ممدوح بابتسامة ساخرة:

- للتحقيق معي في تهمة لا أعرفها!

- أنت لست مُدرجًا في قوائم المطلوب التحقيق معهم اليوم!

في طريق العودة إلى المعتقل سمع ممدوح حوارًا بين ضابط الحراسة ومأمور السجن، تردَّد خلالها اسم تلميذته المطلقة بعلوم عين شمس والتي وقفت وراء فصله من الجامعة... لم تسعفه همهمات المساجين إشباع شهوة الفضول التي استعرت بداخله تلحّ عليه مثل طنين البعوض ليلاً في حقول الأرز.

فجأة توقفت سيارة الترحيلات في باب الخلق وسط شارع بورسعيد، ثم أمره الضابط بالنزول، وخلا به جانبًا:

- ممدوح... علمت الآن أنك هنا بوشاية من سيدة متنفذة بينك وبينها مرارات وثأر.

فغر فاه، وارتسمت علامات الذهول على وجهه، وارتعشت شفتاه الباردتان وجفَّ الريق في حلقه...

وقبل أن يستجمع وعيه المبعثر بين الدهشة والصدمة عاجله الضابط:

– أتعرف سيدة من مصر الجديدة اسمها كذا؟ (وذكر اسمها).

– نعم. طالبة عندي في كلية العلوم.

– أنت أستاذ جامعي؟

– كنت في سبيلي إلى «الأستاذية»... أنا الآن معيد مفصول بقسم الكيمياء.

– لِمَ فُصلت؟

– لذات السبب الذي جاء بي إلى المعتقل.

– على أية حال اسمك غير مدرج في دفاتر سجن الاستقبال. المأمور يريد أن يخلي مسؤوليته عما حدث لك، واقترح إخلاء سبيلك... عد إلى بيتك وأمسك عليك لسانك.

استدار وجه ممدوح وكأنه فسيفساء مترامية، تسع ميدان السيدة زينب القريب، بكل ما به من صخب وفوضى. اختلطت على صفحة وجهه، مشاعر وأحاسيس تلك اللحظة بكل تناقضاتها: الحزن والسعادة... الألم والفرح... الضحك والبكاء... النصر والهزيمة... ظلمة السجن ووميض الحرية... خوف وطمأنينة... حُب وكراهية.

ثم التفت إلى الضابط قبل أن ينصرف:

– يا باشا... أنا يا مولاي كما خلقتني، ليس معي أُجرة الطريق.

ألقى إليه من نافذة سيارة الترحيلات، ورقة بخمس جنيهات... التقطها ممدوح وهو يتعقب حركة السيارة، بعينين مذهولتين حتى اختفت خلف مديرية أمن القاهرة.

في قطار العودة إلى الزقازيق، جلس بجوار النافذة، ينظر بلا اهتمام إلى الحقول والمحطات وحركة الناس والمواشي على الجسور، يتفقد شاردًا وجوه المسافرين من حوله، يراهم كأشباح غامضة، أو ألوان باهتة، لا يكاد يرى تفاصيلها، على خلفية لوحة كبيرة، لا يظهر فيها إلا شيخ الخفر في قريته صلاح البنا، مقيدًا في ذيل حصان ضابط الدورية الفظ. وجهه إلى الأرض وظهره عاريًا يستقبل بجلد لسعات السياط الميري... ووجه تلميذته المطلقة ابنة ضابط الشرطة، وهي تُخرج له بشماتة لسانها، الذي كان يومًا ما يعشق السفر على تضاريس جسده الشهي. فصلته من الجامعة بوشاية، وأدخلته السجن بتوصية!

ثم اختفى الجميع من على صدر اللوحة...وظهر له جاره عم سيد البهنساوي ثملاً كعادته، وهو لا يخفي قهقهته الهازئة: هلا فهمت الآن يا ابن زهيرة؟!: بعد الحرب... نودي علينا نحن الشعب «كما كنت»... وعادت العيون «الجريئة» لتبقى تحت أحذية الحواجب الخشنة!

(٤٤)

بعد أيام... استقبل ممدوح نبأ اغتيال الرئيس السادات، بأحاسيس متبلدة، كأنها دُسَّت بين ألواح الثلج، لكنها مشوبة بفرحة خافتة، مخبئة بين تلابيب قلبه المتعب، الذي أنهكه الركض خلف أحلام كانت مثل النجوم بلا عدد.

«ولا شيء للفرسان يبقى... حين تنكسر الخيول».

ولكن... كعادته مذ كان صبيًا يرتع بين أكواخ الطين الرثة في «نفيشة»... يلوذ ـ كلما شقّ عليه أمر وأهمه شأنه ـ بالبحث عمن يؤنس وحدته ويرحم غربته، ولا يجد ضالته إلا مع ابن قريته القديمة وأستاذه بكلية العلوم حاتم عبد الحفيظ:

– في نفسي شيء منك يا ممدوح، ويبدو أن الوقت مناسب لأصارحك به!

اعتدل ممدوح في جلسته وامتقع لون وجهه وغشيته غمامة قلق وحذر وقال متلعثمًا:

– خيرًا يا دكتور حاتم؟!

– أتذكر يوم عاد الخميني من فرنسا منتصرًا إلى طهران؟

– نعم أذكر.

– أقصد هلا تذكرت صنيعك أنت زملاؤك في بهو كلية العلوم يومها؟

– نعم... احتفلنا بانتصاره، وعلقنا على جدران البهو صورة كبيرة للخميني وتحتها صورة مقلوبة للسادات.

– المُحصلة... كانت ما شهدناه من جريمة مروعة في العرض العسكري.

– الذين قتلوه متطرفون مصريون، وليس الخُميني.

– نعم صحيح... لكن ثورة الخميني كانت مصدر إلهام لهم.

– كيف يا دكتور؟!

– الجماعات الإسلامية التي ينتمي إليها القتلة، كانت صدى لتثوير المذهب الشيعي وإتباع سُنته في مصر شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع.

لمح د. حاتم علامات عدم الرضى على وجه ممدوح، فاستأنف تفسيره للجريمة:

– على أية حال يوجد طرفان متورطان في اغتيال الرئيس.

– من هما؟

– هل تسمع عن مفكر جزائري اسمه مالك بن نبي.

– نعم قرأت القليل عنه.

– له نظرية عبقرية اسمها «الراية الحمراء».

– أول مرة أسمع عنها!

– «ابن نبي» استمدها من رياضة مصارعة الثيران الإسبانية: يهاجم الثور الراية الحمراء وينطحها بهستيرية، معتقدًا أن المشكلة في «الراية»، ولا ينتبه إلى أن المشكلة في «المصارع» الذي يمسك بها ويحركها.

– ما علاقة هذه بمقتل السادات؟!

– النظرية تستنطق المسكوت عنه في الحكاية كلها.

– كيف؟!

– الذين قتلوا السادات كانوا هم الراية الحمراء التي لا يملّ الناس من نطحها آناء الليل وأطراف النهار الآن.

ضحك ممدوح مستغربًا:

– أين ـ إذن ـ المصارع؟!

أطرق برهة متوقعًا ألا يستوعب ممدوح ما يعنيه. سحب سيجارة «سوبر كيلوباترا» من درج مكتبه. وضعها بتؤدة بين شفتيه. أشعلها ولا يكاد يفعل. ولما استشعر لهفة ممدوح واستعجاله لسماع بقية روايته... باغته بقوله:

– اليسار والناصريون.

– كيف؟!

– الناصريون وفروا الغطاء السياسي لقتله، والتحريض على اغتياله، عندما اتهموا الرجل بالخيانة.

– لم أسمع مثل ما تدعيه من أحد غيرك!

– لاحظ يا ممدوح أن الناصريين واليسار يصفون من قُتل أو أُعدم من فريق الاغتيال بـ«الشهيد»!

– حيرتني يا دكتور حاتم: الخميني أم الناصريون واليسار؟!

– الثلاثة معًا... شاركوا في اغتيال الرجل.

نهض ممدوح وهو يغالب النعاس والتثاؤب مردِّدًا غير مقتنع:

– ربما!. غدًا تأتي جهينة بالخبر اليقين.

ضحك حاتم وداعب ممدوح قائلاً:

– غدًا... يشاركنا آيات الله في «قم» الإضجاع على أسرّتنا في غرف نومنا.

كتم ممدوح ضحكة متمردة، احترامًا لأستاذه، واكتفى بنظرة متشككة... ثم نهض مازحًا:

- فليأتوا متى شاءوا... ليس عندي إلا السرير، وليس لي زوجة... هههههه.

(٤٥)

في البيت لم يعد ممدوح مرحًا كعادته، أرخى الحُزن ستائره المعتمة على وجهه الجميل، شارد الذهن، تكاد تمزق ريح القلق العاتية، شراع عينيه الخضراوين، يقضى معظم وقته حبيس غرفته، لا يشارك أبويه الطعام، إلا ليدفع عن نفسه استجوابهما المتوقع له، فهو قعيد البيت، وقد أخفى عنهما قرار فصله من الجامعة، ماذا عساه يقول لهما؟

لا يشغله رضى أمه أو سخطها عليه، فهي لم تتغير مذ كان طفلاً يحبو في حارته بـ نفيشة »... ولكن يظل أبوه ـ الذي يحبه ـ محل نظر عينيه، يخشى عليه من الصدمة، لا يتخيل ساعة أن ينزع من على عمامته، ريشته التي ما أنفك يباهي بها الخلائق في قريته وبين عائلته.

لا يتوقف ضجيج وابورات التفكير، في رأس ممدوح المثقلة بالهموم، يركض وراء البحث عن «منقذ» يحفظ لأبيه فرحته بابنه «المعيد بالجامعة»، يساءل نفسه، حال قبض على ضالته، أيبدأ هو بمصارحة أبيه أم ينتظر ريثما يسأله مستفسرًا عن حاله المثير للشكوك؟

– أبي... حصلت على إجازة بدون راتب لمدة عام.

غشيت أباه سِنةُ من صمت قاتل... تردد صوته في حلقه، وسأله وقد تحشرجت روحه في صدره:

– لِمَ؟!

– راتبي ضعيف لا يفي بشروط المنصب، من ملابس وكتب ومراجع وسفر.

– والإجازة هي الحل؟!

– حل مؤقت ريثما أدخر بعض المال.

– ومن أين ستحصل عليه؟

– من التجارة.

– تجارة؟!

– نعم. «بورسعيد» الآن تدرّ المَن والسلوى، حتى على التافهين.

ردَّ عليه متهكمًا:

– إيه؟ ستعمل مهربًا؟!

أطرق ممدوح للحظات قبل أن يجيب:

– سأشارك أصدقاء لي «بورسعيدية» كانوا من «المهاجرين» هنا في بلدنا.

– من معيد جامعي لمهرب أو تاجر شنطة... ألست خجلانا من نفسك؟!

ابتسم ممدوح ساخرًا:

– معيد؟!.. الولد المهرب يكسب في اليوم الواحد، ثلاث أضعاف راتبي في الشهر!

– الفلوس ليست كل شيء!

– هي كل شيء يا أبي... هي السلطة والنفوذ والجنات والنعيم والحور العين... وليس العلم ولا التعليم.

- قل لي ما الذي غيَّرك؟!

- « لو خرب بيت أبوك خدلك منه قالب».

توقف ممدوح عن جدال أبيه، عندما نادى عليه صديقه البورسعيدي «مسعد». غادر معه حيث اعتاد الخلاء بنفسه. أمضيا وقتا طويلاً في «مصلى» يستظل بشجرة توت عتيقة، مفروش بقش الأرز والتبن، على محطة السكة الحديد، اتفقا على كل شيء من أول الخروج من جمرك بورسعيد إلى تصريف البضاعة في الزقازيق.

(٤٦)

تغيَّر حال ممدوح... ارتدى من الملابس أغلاها، وأكل من الطعام ما لذ وطاب، وباتت أمه «المهمِلة» له، تنتظر عودته بلهفة كل ليلة. اشترى حنانها الذي حُرِم منه طفلاً، بالمال والأُبهة شابًا.

ابتاع ثلاث مكتبات في شارع المكاتب بالزقازيق، وأحالها إلى معارض للأدوات الصحية، استبدل المعروض في الفاترينات، من كتب ومراجع وروايات، بالقيشاني والسيراميك وقعدات المراحيض.

اشترى أرضًا مقامًا عليها مدرسة صناعية، كانت مستأجرة من الإصلاح الزراعي بعدما عجزت وزارة التربية والتعليم عن سداد إيجارها... هدم المدرسة وأحالها إلى مزرعة دواجن، ألحق بها مجزر آلي لذبحها وتسويقها.

ترك بيت عائلته في قريته بالشرقية، واشترى فيلا «دوبلكس» في عمارة فارهة بحي «جاردن سيتي» بالقاهرة.

يجري بين يديه الخدم والحشم وتحت أمره، أسطول سيارات وأكثرمن سائق خصوصي، ويبدل النساء الواحدة تلو الأخرى، كما يبدل رابطة عنقه.

أخذته دنياه الجديدة، وغيبته داخل مجتمع «القطط السّمان»، بلغت حد عدم اهتمامه، بقرار المحكمة الإدارية العليا، بإلغاء قرار فصله من الجامعة، وعودته إلى وظيفته

معيدًا بها. التقط الحكم من يد المحامي، ودسَّه في درج مكتبه، بلا اهتمام.

(٤٧)

عند المنفذ، وبعد عصر يوم قضاه بين تجار بورسعيد، قطع انشغاله مع معارفه بالجمرك ـ أثناء تمرير بضاعته ـ أصوات هرج ومرج وصياح بالقرب منه: موظفو الجمرك ـ يشاركونهم جنود أمن مركزي ـ يكيلون الركل والضرب والشتائم النابية، لرجل تكوم تحت أحذيتهم، لا يظهر منه إلا صوت استغاثته وتوسله لهم أن يتركوه، ويعدهم بسداد ما يطلبونه منه.

اقترب ممدوح يتفحص وجه الرجل... عندما رآه، جنّ جنونه، وكأن أصابه مسٌّ من الشيطان. فقد عقله ووعيه. اندفع وسط الحشود غير وجل من العواقب. ألقى بجسده على الرجل، ليتلقى الإهانات والصفع والركل على جسده بدلاً منه، وهو يسبهم بأقذع الألفاظ:

– دعوه يا سفلة... اتركوه يا بهايم... إنه أستاذي... أستاذ الكيمياء... دكتور حاتم عبد الحفيظ.

تدخل معارفه من موظفي الجمرك، ومرافقوه من رجاله، فضوا الاشتباك بمشقة. حملوا د. حاتم. أجلسوه على كرسي. غسلوا وجهه. ضمدوا خدوشًا وجروحًا بسيطة. أعادوا تصفيف شعره. دبروا على عجل قميصًا وبنطالاً على مقاسه.

نظر ممدوح إلى د. حاتم بأسى. وانزلقت من عينيه دمعتان. ولسانه يلهج بالاعتذار له. وجبر خاطره وتطييب نفسه المنكسرة:

– معذرة يا دكتور... « اللي ما يعرفك يجهلك ».

أشعل سيجارة وناولها له:

– لِمَ جئت إلى بورسعيد؟!... ولِمَ اعتدوا عليك؟!

– كنت أعاود زوج شقيقتي المريض، وراقت لي بدلة ابتعتها من شارع «طرح البحر».

– يعني... كل هذه البهدلة على بدلة؟!

– صادرها مني موظف الجمرك. تركني بعدها واختفى. سألت عنه. قابلته تجادلنا. علا صوته. عرفته بنفسي عساه يرتدع أو يحفظ لي منزلتي. أصدر من حنجرته صوتًا نابيًا. شتمني... فبادلته الشتائم بمثلها... لم أشعر بنفسي بعدها. فقدت الإحساس بالعالم من حولي... حتى ساقك الله إلي.

في الأثناء...اقترب منهما ضابط شرطة، مصحوبًا بقوة مدججة بالهروات، أمرهما بالتوجه معه، إلى نقطة شرطة الجمرك لتحرير محضر.

هناك تم اتهامهما بالتعدي على موظف عمومي أثناء تأدية عمله. أمضيا ليلتهما في الحبس. وفي الصباح عُرضا على النيابة. رقَّ حاله للمحقق. أمر بإخلاء سبيلهما بدون ضمانات.

قبل أن يغادرا طلب د. حاتم برد اعتباره كمواطن اُعتدي عليه. نظر إليه المحقق بابتسامة ساخرة:

– مواطن؟!.. هذا وحده لا يكفي!

– ماذا تعني؟!.. لا أفهم!

تغيَّر وجه وكيل النيابة وبدت عليه علامات الغضب ونفاذ

صبره ورد عليه مغتاظا:
- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ).

أصيب د. حاتم بالدوار... وكأن معولاً شقَّ رأسه من حيث لا يحتسب. مدَّ يده إلى ممدوح الجالس قباله، طالبًا مساعدته على النهوض. تأبط ذراعه وانصرفا بخطوات ثقيلة.

على باب مبنى النيابة المهترئ. وقف ممدوح مطرقًا. فيما نزل د. حاتم الدرج بتوؤدة... وقبل أن يهبط الدرج الأخير، التفت إلى ممدوح:
- لِمَ وقفت؟! ألن تأتي معي، نستقل أتوبيس «نقل عام»؟!

نظر إليه ممدوح من مكانه على قمة سنام السلم...نظرة إشفاق مشوبة بمشاعر الوداع الأخير:
- لا... أنا سأستقل قطار الإكسبريس.

وافترقا...

كلٌ في طريق.

المؤلف في سطور

- صحفي ومفكر وباحث في علم الاجتماع السياسي والديني
- عضو الجمعية العمومية بنقابة الصحفيين المصريين
- شغل منصب رئيس تحرير شبكة المعلومات العربية
- شغل منصب مدير تحرير مجلة المنار الجديد (فكرية فصلية)
- له مقال ثابت في جريدة الحياة اللندنية
- كاتب مقالات ودراسات في عدد كبير من الدوريات العربية والدولية
- شارك في مؤتمرات وندوات فكرية وثقافية في غالبية العواصم العربية
- استضافته العديد من الفضائيات العربية والدولية لمناقشة قضايا مثيرة للجدل
- حصل على جائزة «مهرجان أوسكار إيجيبت» للتميز الصحفي لعام ٢٠٢٠
- حاز كتابه «المكبوت الديني في أوروبا» على أفضل كتاب لعام ١٩٩٧.
- البريد الإلكتروني: dr_msultan@hotmail.com

• صدر له:

– المكبوت الديني في أوروبا: دار المنار الجديد، ١٩٩٧م

– الأقباط والسياسة / تأملات في سنوات العزلة: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م.

– الإخوان المسلمون والجماعة الوطنية في مصر: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م.

– الشبيهان: مجموعة قصصية. دار أفاتار للطباعة والنشر، ٢٠٢١م.

– الفيلا رقم ٥: مجموعة قصصية. دار أفاتار للطباعة والنشر، ٢٠٢١م.

– الدين والتراث والهوية / توثيق مائة عام من المعارك الفكرية في مصر: مؤسسة شمس للنشر والإعلام، ٢٠٢١م.

– كنائس ومساجد / والهوية الوطنية للدولة: مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٢٢م.

– التقفيصة : رواية. مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٢٤م.

شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net